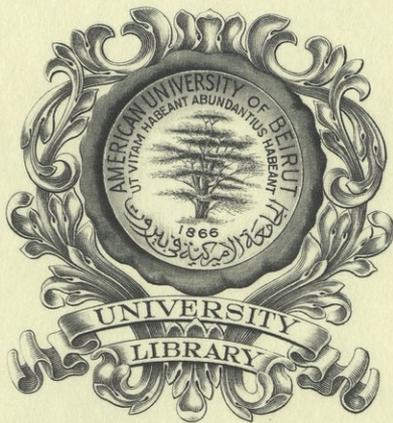
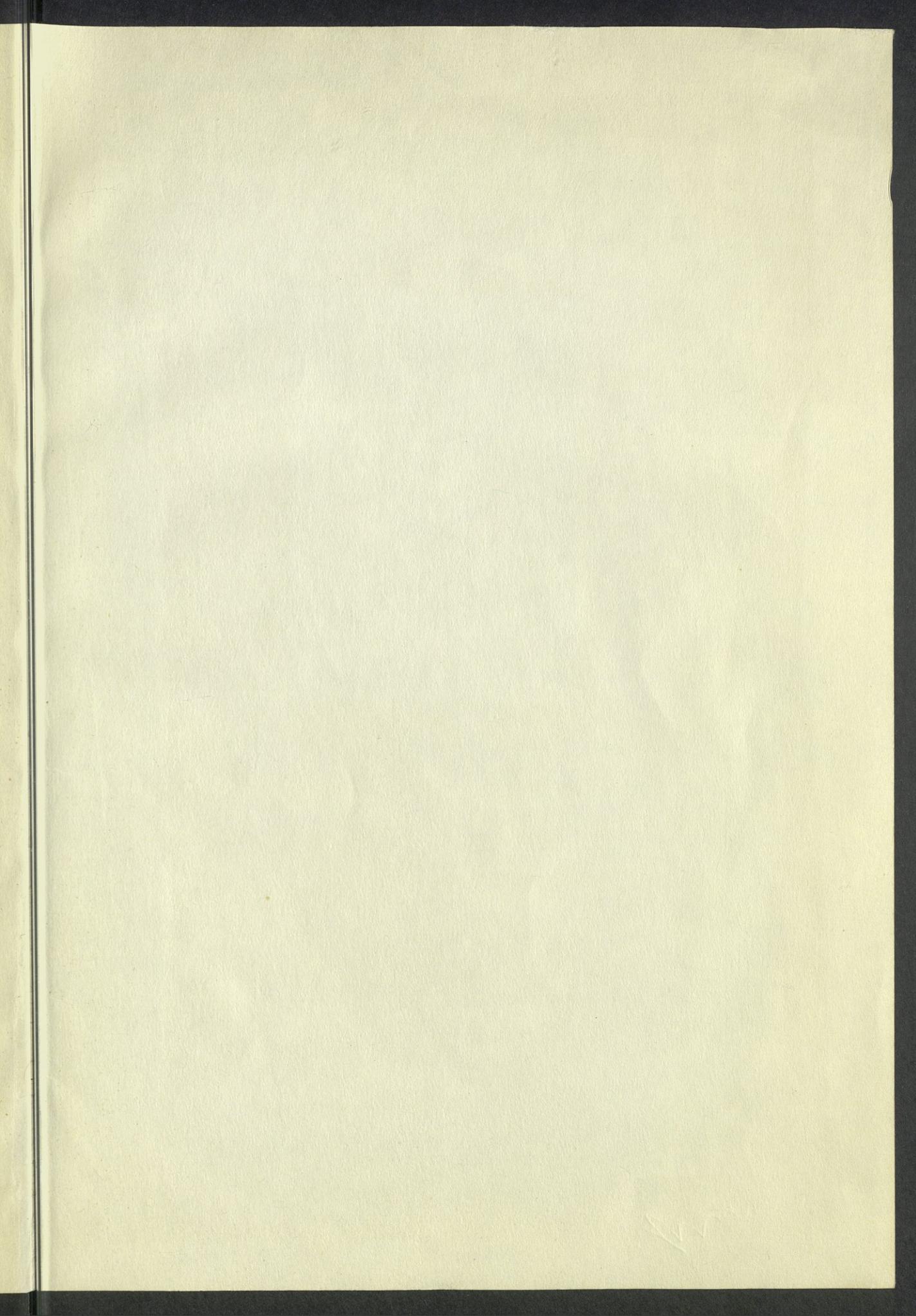


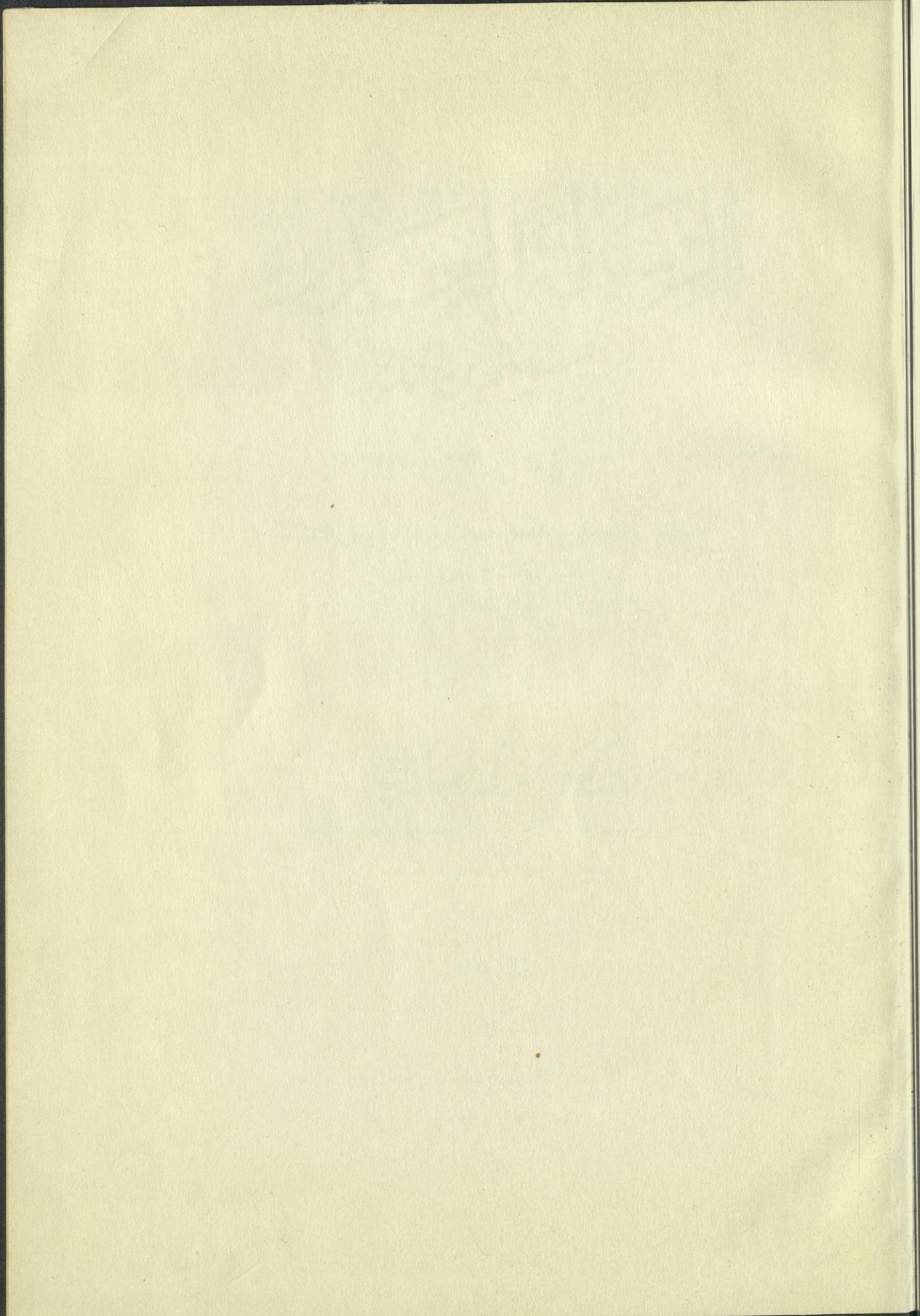
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



UNIVERSITY
LIBRARY

11
A





Cat. Dec. 1933.
Alumni

443
2362

نوركي

May 12.

السُّنَنُ التِّرَاغِيذِيَّةُ

لابرِّهَيْمِ بْنِ الْمَدْبَرِ

مصحورة في الطبعين سنة ٥٦٨

طبعة
4/1/1922
سنة 1922 م
٢٧٩ هـ

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب في القرن الثالث

بقلم

الدكتور زكي مبارك

رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

49351

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٣٥ - ١٩٣١ م

Cat. Dec. 1933. Almunawi



كلمة وجيزة

تلك الرسالة العذراء

أقدمها للقراء بعد أن شغلت نفسي بها عاما كاملا : فصحتها
وضببتها، وقابلت أصولها على ما كتب من نوعها في فن الإنشاء.
وكان في النية أن أكتب لها مقدمة بالعربية، ولكنني اكتفيت
بذلك البحث المفصل الذي كتبته بالفرنسية عن فن الإنشاء
في القرن الثالث، وشرحت به آراء ابن المدبر، وابن درستويه،
والصولي، وابن عبد ربه، والجاحظ .

وهذه الدراسات قدمت في الأصل لمدرسة اللغات الشرقية
في باريس لنيل "دبلوم الدراسات العليا في الآداب" وقد عرضت
لها بشيء من التعديل بعد أن انتفعت بملاحظات الأساتذة
في يوم الامتحان .

وفي البحث الفرنسي بعض الخروج على الحدود التي رسمها
الأستاذ وليم مرسيه . واني لأعتذر اليه : فقد رأيتني مضطرا
الى مخالفته، وإن كنت أضمر له في نفسي أسمي آيات الإعزاز،

فقد يفنى كل شيء وتبقى ذكريات الساعات الطيبة التي قضيتها
معه في تحقيق أصول "الرسالة العذراء" .

وهذا البحث في جملته تمهيد لكتابي الذي وضعته بالفرنسية
عن "النثر الفني في القرن الرابع" وقدمته الى جامعة باريس .



وأتهز هذه الفرصة فأقدم أسمى التحيات الى المستشرقين
الفرنسيين الأساتذة : مرسيه، وديمومين، وماسينيون، وكولان؛
الذين انتفعت بعلمهم في باريس .

وأشرف بعد ذلك باهداء هذا البحث الى الدكتور سنوك
هوجرونيه المستشرق الهولندي الذي وضع في سنة ١٩٢٦
بجنا وافييا بالهولندية عن كتابي "الأخلاق عند الغزالي" فشرفتي كل
التشريف ورفع قدرى بين المستشرقين .

زكى مبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فتق الله بالحكمة ذهنك ، وشرح بها صدرك ، وأنطق بالحق لسانك ، وشرف به
 بيانك .^(١) وصل الى كتابك العجيب الذي استفهمتني فيه بجوامع كلمك جوامع أسباب
 البلاغة ، وأستكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة ، سألتني أن أقف بك
 على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته ، وحدود نغامة المعنى وجرالته ، ورشاقة نظم
 الكتاب ومشكلة سرده ، وحسن افتتاحه وختمه ، وانتهاء فصوله ، وأعتدال وصوله ،
 وسلامتهما من الزلل ، وبعدهما من الخطل ، ومتى يكون الكاتب مستحقا اسم الكتابة ،
 والبلغ مسامحا له معاني البلاغة في إشارته واستعارته ، وإلى أى أدواته هو أحوج ،
 وبأى آلاته هو أعمل ، إذا حصص الحق ،^(٤) ودعى إلى السبق ؛^(٥) وفهمته .

(١) الابتداء بالدعاء على هذا النحو كان مألوفاً في القرن الثالث ، وبشبه هذا ابتداء الجاحظ حيث
 قال : "جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ، وبين الصدق سببا ،
 وحبب إليك الثبوت ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع
 صدرك برد اليقين ، وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من القلة " .
 مقدمة الحيوان طبع سنة ١٣٢٣ بالقاهرة . (٢) نلاحظ أن الكاتب عدى الفعل : « استفهم »
 بنفسه ، وعدى : « استكشف » بالحرف ، وقد نص الفيروزابادي على تعديته الفعل الثاني وسكت عن
 الأتول . (٣) لعل الصواب « وعبارته » لأنها أنسب ولأن المؤلف لم يفرّد الاستعارة بكلام خاص .
 (٤) جملة : « إذا حصص الحق » لا حاجة إليها ولكن دعا إليها السجع والمضى في المزاجية .
 (٥) جملة : « وفهمته » وقعت بعيدة عن الكتاب ، وإيجازها بعد ذلك الأطناب يشعر القارئ بشيء
 من الوحشة . وقد وقع هذا التعبير بعينه في مقدمة رسالة الجاحظ عن أخلاق الكتاب إذ قل : « قد
 قرأت كتابك ، ومدحك أخلاق الكتاب وفعالهم ، ووصفك فضائلهم وأيامهم ، وفهمته » ص ٤٠ من
 « ثلاث رسائل للجاحظ » طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ . وكلمة الجاحظ « مدحك أخلاق الكتاب »
 وردت هناك « مدحتك » والأصوب ما أثبتناه ليصح التوازن مع قوله بعد ذلك : « وصفك فضائلهم » .

وأنا راسم لك - أيدك الله - من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك ، ويعبر عن جملة
سؤالك ، وإن طوّلت في الرّجاء وعرضت^(١) ، وأطنبت في الوصف وأسهبته ،
ومستقص على نفسى في الجواب على قدر استقصائك في السؤال ، وإن أخلّ به
التيّات الحال ، وسكون الحركة ، وفتور النشاط ، وانتشار الروية ، وتقسّم الفكر ،
واشتراك القلب ، والله المستعان^(٢) .

(١)

إعلم - أيدك الله - أن أدوات ديوان جميع المحاسن وآلات المكارم طاعة منقادة^(٣)
لهذه الصناعة التي خطبتها وتالية تابعة لها وغير خارجة الى جحد أحكامها ولا دافعة
لما يلزمها الإقرار به لها إضرارا منها إليها وعجزا عنها ، فإن تقاضت نفسك علمها
ونازعتك همّتك الى طلبها فاتخذ البرهان دليلا شاهدا والحق إماما قائدا يقرب مسافة
ارتدادك ويسهل عليك سبل مطالبتها ، وأستوهب الله توفيقا تستنجح به مطالبك ،
وأستمنحه رشدا يقبل إليك بوجه مذاهبك . فاقصد في ارتدادك ، وتأمل الصواب
في قولك وفعلك . ولا تسكن الى جمود قصد السابق بالجحاح ، ولا تخرج الى إهمال
حق المصيب بالمعاندة والانكار ، ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها ،
فترحل نافرة عن مواطنها من قلبك ، وتظعن شاردة عن مكانها من بالك ، وتنعفى
بعد العجارة من قلبك آثارها ، وتتطمس بعد الوضوح أعلامها .

(١) عرضت : جعلته عرضا وهو تعبير قليل الوقوع . وفي مثله قال موسى بن الطائفي الأندلسي :

يا مبصر عميت نواظر فهمه * عن كنهه عرضى في البديع وطول

ص ١٤٣ ج ١ ذخيرة

(٢) هذه العبارة تفهمنا أن المؤلف وضع هذه الرسالة في وقت لم يكن أنسب الأوقات للتأليف . ولكن
ينبغى أن نلاحظ أن مثل هذه الشكوى وقعت لكثير من المؤلفين حتى كادت تصير فمابعد جزءا من المقدمات .

(٣) « طائفة » مؤنث طاع بمعنى طائع .

(٢)

وأعلم أن الاكتساب بالتعلم والتكاف ، وطول الاختلاف إلى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ؛ فإن أردت خوض بحار البلاغة ، وطلبت أدوات الفصاحة ، فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه : في تلقيح ذهنك ، وأستنتاج بلاغتك ، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار ، والسير والأسمار ، ما يتسع به منطقتك ، ويعذب به لسانك ، ويطول به قلمك .

(٣)

وأنظر في كتب المقامات والخطب ، ومحاورات العرب ، ومعاني العجم ، وحدود المنطق ، وأمثال الفرس ورسائلهم ، وعهودهم وتوقيعاتهم ، وسيرهم ومكايدهم في حروبهم ، بعد أن نتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط ككتيب السجلات والأمانات ، فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب ، وتمهر في نزع آي القرآن في مواضعها ، واجتلاب الأمثال في أماكنها ، وأختراع الألفاظ الجذلة ، وقرض الشعر الجيد ، وعلم العروض : فان تضمنين المشمل السائر ، والبيت الغابر ، مما يزين كتابتك ، ما لم تخاطب خليفة أو ملكا جليل القدر ، فان اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجللة الرؤساء عيب واستهجان للكاتب ، إلا أن يكون

(١) في الأصل « الأسماء » وهو تحريف . (٢) المقامات جمع مقامة وهي في اللغة المجلس .

وفي القرآن : « أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » سورة مريم آية ٧٢ وفي شعر زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم * وأندية يبتأبها القول والفعل

ثم تطورت بالاستعمال فصارت تدل على ما يقع في الأندية من طريف المحاورات ، وفي هذا المعنى استعمالها مؤلف الرسالة العذراء ، ثم خصصت في كلام بدیع الزمان ومن حاكاه فصارت اسما للقصة القصيرة المسجوعة . (٣) في العقد : « الغريب » وهي اللفظة المستعملة في مثل هذا المقام .

الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ، فان ذلك مما يزيد في أبعثه ، ويدل
على براعته . وإن شدوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محله ، وتنقبت من هذه الفنون
ما تستعين به على إطالة قلمك ، وتقويم أود بيانك .^(٢)

(٤)

بعد أن يكون الكاتب صحيح القريحة ، حلو الشئائل ، عذب الألفاظ ، دقيق
الفهم ، حسن القامة ، بعيدا من القدامة ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محنكا
بالتجربة ، عالما بجلال الكتاب والسنة وحرامهما ، وبالملوك وسيرها وأيامها ،
وبالدهور في تقلبها وتداولها ، مع براعة الأدب ، وتأليف الأوصاف ، ومشكلة
الاستعارة ، وحسن الإشارة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، حتى ينصب صورا
منطقية تعرب عن أنفسها ، وتدل على أعيانها ، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات
الكتاب طول القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ،
ولطف المذهب ، وحلاوة الشئائل ، وملاحة الزي ، حتى قال بعض المهالبة لولده :

(١) بمناسبة تضمين الأبيات قال صاحب صبح الأعشى : « الاستشهاد أن يورد البيت من الشعر
أو البيتين أو أكثر في خلال الكلام المتثور مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر ، ولا يشترط فيه أن ينه عليه
بقال ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية ، فان الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن
غيره من أنواع الكلام فلا يحتاج الى التنبه عليه ، وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانيات »
ص ٢٧٤ ج ١ طبع دار الكتب المصرية .

(٢) لم يذكر الكاتب جواب الشرط .

(٣) في الكلام التفات من المخاطب الى الغائب .

(٤) في الأصل "تنصب" بالناء المثناة من فوق .

(٥) الربط غير موجود بين هذا الكلام وما قبله ، لأن ما قبله خاص باجادة المعاني وهذا خاص
بالصفات الحسية للكتاب . وعبارة العقد : « من صفة الكاتب اعتدال القامة ... الخ » ولاحظ
أن هناك « اعتدال القامة » وهنا « طول القامة » . (٦) جمع لهزمة وهي عظم ينبت تحت الأذن .

الكتاب

تزيوا بزى الكتاب ، فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السوق^(١) . [ومن كمال آلة
الكاتب أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المرودة ، عطر الرائحة ،
دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشى اللسان ، حلو الإشارة ،
مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستقره المركب ، ولا يكون مع ذلك فضفاض
الجنحة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة ، فانهم زعموا أن هذه الصورة
لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة]^(٢) .

(١) كان الكتاب يجملون في ملابسهم حتى صحت فيهم هذه العبارة . وكان لهم زى خاص ، قال تعالى :
« وكان في جملة الطارئين على الصاحب شيخ أنطاكي في زى الكتاب حسن البيان ظريف اللهجة » ص ٥٣
ج ٣ يتيمة . وكانوا معروفين بمجلاوة الثمائل ، وأنشد صاحب صبح الأعشى (ص ١١٥ ج ١٤) :
وشول كأنما اعصروها * من معاني شمائل الكتاب

.. وقال ابن بسام يصف عبد الرحمن بن حزم وبفضله على ابن عمه أبي محمد ابن حزم (كان أنه من أبي محمد
في حضور شاهده وذكاء خاطره وحسن هيئته وبراعة ظرفه وجودة أدبه) أنظر الذخيرة ج ١ ص ٦٣
مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد أشار ابن قتيبة الى أزياء الكتاب في عيون الأخبار ج ١ ص ٤٦ وعرض لهم الجاحظ في رسالته
ذم أخلاق الكتاب فأبان أنهم كانوا يهتمون بتعريض الجبة وتطويل الذيل . انظر ص ٤٢ من ثلاث
رسائل للجاحظ طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .

وقد أعطانا ياقوت بعض التفاصيل عن لباسهم فذكر أنهم كانوا يلبسون الطيلسان أو الدراعة . وانظر
قوله (قال ابن عبد الرحيم : كان البنى في بده أمره يلبس الطيلسان ... ثم لبس من بعد الدراعة وسلك
في لبسه مذاهب الكتاب القدماء ، وكان يلبس الخفين والمبطنة ، ويتعمم العمة الثغرية ، وإن لبس لاجحة
لم تكن إلا من بديه ، وكان لا يتعرض لحلق شعره جريا على السنة السالفة .) ص ٢٣٤ ج ١ — وعرض
المقدسى أيضا لأزياء الكتاب في كتابه أحسن التقاسيم ص ٤٤٠ ج ١ — ويظهر من كلام الجاحظ
في البيان والتبيين أنه كان لكل طبقة من الكتاب زى خاص . انظر ص ٦٠ ج ٣ . والتفاصيل التي أعطاها
صاحب العقد عن أصناف الكتاب تحتم ذلك : فقد كان لكل صنف ثقافة خاصة به فن المعقول أن يكون
لكل طبقة زى خاص بها ليسا كل الوسط الذى تعيش فيه .

(٢) زيادة عن نهاية الأرب ج ٧ ص ١٢

(٥)

وخاطب كلا على قدر أهيمته وجلالته، وعلوه وأرتفاعه، وتفطنه وأنتباهه ^(٢).
وأجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام: فأربعة منها للطبقة العلوية، وأربعة ^(٣)
دونها، ولكل طبقة منها درجة، ولكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر ^(٤)
بأهلها عنها، ويقلب معناها إلى غيرها: فالطبقة العليا الخلافة التي أعلى الله شأنها ^(٥)
عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير والمخاطبة والترسل.
والطبقة الثانية الوزراء والكاتب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم، ويرتقون
الفتوق بأرائهم، ويتجملون بأدابهم. الثالثة أمراء ثغورهم، وقواد جيوشهم،
يخاطب كل أمرئ منهم على قدره وبما حمل من أعباء أمورهم، وجلائل أعمالهم.
الطبقة الرابعة القضاة، فانهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء، فمعهم
أبهة السلطنة وهيبة الأمراء ^(٦).

الخلافة
الوزراء
الأمراء
القضاة

- (١) عبارة العقد الفريد: « إذا احتجت الى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكاتب والخطباء
والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسوقهم فخطب كلا على قدر أهيمته . الخ .
(٢) في العقد: « وفطنته » .
(٣) عبارة العقد: « منها الطبقات العلية أربع ، والطبقات الأخرى وهي دونها أربع »
(٤) عبارة العقد: « فالحد الأول الطبقات العليا وغايتها القصوى الخلافة » .
(٥) عبارة العقد: « التي أجل الله قدرها » .
(٦) بمناسبة المكتوب إليه قال ابن قتيبة في أدب الكاتب: « ونستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه
في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه وألا يعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس
وضيع الكلام ، فإن رأى الكاتب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخالطوا فيه فليس يفرقون بين من يكتب
إليه : « فرأيتك في كذا » وبين من يكتب إليه : « فإن رأيت كذا » . ورأيتك إنما يكتب بها للأكفاء
والمساوين ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأساتذة لأن فيها معنى الأمر ولذلك نصبت .
ولا يفرقون بين من يكتب إليه : « وأنا فعلت ذلك » وبين من يكتب إليه : « ونحن فعلنا ذلك » .
نحن لا يكتب بها عن نفسه إلا أمر أو ناه لأنها من كلام الملوك والعظماء » . ١٥ ص طبع سنة ١٣٤٦ هـ .

٢٤

أما الطبقات الأربع الأخرى: فالمملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب وأفضالهم تفضيلهم فيها . والثانية وزراءهم ، وكآبهم ، وأتباعهم الذين بهم تفرع أبوابهم ، وبعنايتهم تستباح أموالهم . والثالثة هم العلماء الذين يجب توقييرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله . الرابعة لاهل القدر والجلالة والظرف ، والخلوة والعلم والأدب ، فانهم يضطرونك بحجة أذهانهم ، وشدة تمييزهم وانتقادهم ، [وأديهم وتصفحهم] الى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم .

(٦)

واستغنيانا عن الترتيب للتجار والسوقة والعوام رتبة لاستغنائهم بتجارهم عن هذه الآلات ، واشتغالهم بمهماتهم عن هذه الأدوات . ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلتك إليهم في كتبك ، وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه ، وتعطيه قسمة ، وتوفيه نصيبه ، فإنك متى أضعت ذلك لم آمن بك أن تعدل بهم غير طريقهم ، [وتسلك بهم غير مسلكهم] وتجري شعاع بلاغتك في غير مجراه ، وتنظم جوهر كلامك في غير سلكه . فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تأبسه لفظا جزلا لاثقابن كاتبتة ، ومشابها لمن راسلته . فان إلباسك المعنى ، وإن شرف وصلح ، لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى ، وإخلال

(١) في العقد : « أهل القدر » . (٢) عبارة العقد : « والجلالة والخلوة والطلاوة والظرف والأدب » . (٣) زيادة عن العقد . (٤) في العقد : « تراعاها في مراسلتك إليهم في كتبك » . (٥) في العقد : « متى أهملت ذلك » . (٦) في العقد : « لم آمن عليك » . (٧) في العقد : « عن » . (٨) زيادة عن العقد . (٩) في الأصل : « فلا يفيد المعنى » وقد آثرنا عبارة العقد لأنها أدق . (١٠) في الأصل : « وان إلباسك » وقد اخترنا رواية العقد ، لأنها أظهر في ربط الكلام .

بقدره ، وظلم لحق المكتوب اليه ، ونقص مما يجب له ؛ كما أن في اتباع تعارفهم ،
وما اندشرت به عاداتهم ، وجرت به سنتهم ، قطعاً لعذرهم ، وخروجاً من حقوقهم ،
وبلوغاً الى غير غاية مرادهم ، وإسقاطاً لحجة أدبهم .

حذف من هنا

فمن الألفاظ المرغوب عنها ، والصدور المستوحش منها في كتب السادات
والأمراء والملوك ، على اتفاق المعاني ، مثل : "أبقاك الله طويلاً وعمرك ملياً" ،
وإن كنا نعلم أنه لا فرقان بين قولهم : "أطال الله بقاءك" ، وبين قولهم : "أبقاك
الله طويلاً" ، ولكنهم جعلوا هذا أراجيح وزناً ، وأنبه قدراً ، في مخاطبة الملوك ؛ كما أنهم
جعلوا "أكرمك الله وأبقاك" أحسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء ، من "جعلت
فدالك" ، على اشتراك معناه ، واحتماله أن يكون فداء من الخير كما يكون فداءً له من
الشر . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص : "فدالك
أبي وأمي" ، لكرهت أن يكتب بها أحد . على أن كتاب العسكر وعوامهم قد أولعوا
بهذه اللفظة حتى أستعملوها في جميع محاوراتهم ، وجعلوها هجيراًهم في مخاطبة
الشريف والوضيع ، والصغير والكبير ؛ ولذلك قال محمود الوراق :

الصدور

القول
العلم

- (١) في الأصل « امتناع » وهو تحريف .
- (٢) في الأصل : « وضعا لقدرهم » والتصويب عن العقد .
- (٣) كلمة « غير » لازوم لها هنا ، وهي من زيادة الناسخ .
- (٤) في الأصل « ضمن » وهو تحريف .
- (٥) قال الصولي : « قد كره قوم من أهل العلم « أطال الله بقاءك » . وروى عن حماد بن زيد أنه
قال : أحدثها الزنادقة . وقال الأصمعي : هي من دعاء الزنادقة . وقيل : أصل يبطل هذا ويطلق التكاثر
بها إذ كان الناس كلهم الآن عليها ، وذلك الأصل هو ما رواه أنها وقعت في مخاطبة عمر لعلي بن أبي طالب :
صدقت ، أطال الله بقاءك ! (أدب الكتاب — ص ١٧٢ و ١٧٣) .
- (٦) في العقد : « ارم ، فدالك أبي وأمي ! » .

كل من حلَّ سرِّ من را من النا * س ومن يصاحب الأملاك^(١)
لورأى الكلب ماثلا في طريق * قال للكلب يا جعلت فداكا^(٢)

(١) في العقد : « بداخل » . (٢) قد وقع ابن المدبر في هذا إذ قال يخاطب أبا العبيس :
كيف أصبحت يا جعلت فداكا * إنني أشتكى إليك جفاكا
(ص ١١٨ ج ١٩ أغاني) .

وقوله في مخاطبة أبي عبد الله حمدون :

لبئس مستصحا في مثل ذلك يا * نفسي فداؤك من مستصحب غدر

وتأمل عبارة « يا نفسي فداؤك » . ووقعت هذه العبارة في خطاب كتبه إليه عريب إذ قالت : « فلا
تعود نفسك — جعلني الله فداها — هذا الجفاء ، والثقة مني بالاحتمال وسرعة الجوع » ص ١٢١
ج ١٩ أغاني . وذكر الفلقشندي نقلا عن النحاس في جملة ما يكتب به الفتيان : « جعلت أنا وطارفي
وتالدي فداك ، أو نفسي تفديك » ص ١٣٢ ج ٨

وقد وقع هذا الدعاء في كتب ابن عبد كان — كاتب أحمد بن طولون في مصر — إذ قال :

« جعلني الله فداك ، فإن في ذلك شرفا في العاجل ، وذخر العقبي في الآجل » . وقال :

« إن قلت في كتبي إليك : جعلني الله فداك ، فأكون قد بنحست حظ إحسانك إليّ ، وحق مفترضك
عليّ ، لأنها نفس لا توازن ساعة من يومك ، ولا توازي طرفة من دهرك ، وإنما يفدي مثلك بالأنفس
التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض » ص ١٦١ ج ٨

ويظهر من كتاب أدب الكتاب للصولي أن هذا تعبير قديم ، فقد نقل أن الزبير دخل على النبي صلى الله
عليه وسلم وهو عليل فقال : ما الذي بك ، جعلني الله فداك؟ فقال : « يا زبير ! أما تركت أعرا بيتك
بعد ! » . كأنه كره قوله : جعلني الله فداك . ص ١٧٣ . ونقل عن أحمد بن يحيى ثعلب أنه سمع ابن الاعرابي
يقول : تقول العرب « وهبني الله فداك » بمعنى جعلني فداك . ص ١٧٤

وكتب عبد الحميد : « جعلت فداك من سوء كله » . وتبعه أبو العيناء ص ١٥١ أدب الكتاب .
ويظهر أن ابن المدبر كان قد ردّ هذه الفكرة في أحاديثه قبل أن يودعها الرسالة العذراء ، فقد قال
الصولي : وأجتنبوا أن يقولوا للوزير في الدعاء « جعلني الله فداك » من أجل أن الشيء إنما يفدي
بمثله أو بأجل منه . ثم قال بعد إيراد الشواهد على ذلك : « حدّثنا بذلك إبراهيم بن المدبر ، وهذا رأى
لم يكن القدماء يرونه ، بل كانوا يخاطبون الخلفاء بالتفدية فضلا عن الوزراء » . (ص ١٥٣ و ١٥٤) .
ونقل عن المبرد أنه قال : سألت المأمون أبا محمد يحيى بن المبارك عن شيء فقال له : « لا ، وجعلني الله
فداك ، يا أمير المؤمنين » ؛ فقال : لله دَرَك ، ما وضعت وأوقط موضعا أحسن من موضعها في لفظك .
ووصله وجملة . قال : وهذا لفضل أدب المأمون ، علم أن التفدية من أخلص الدعاء ، وألطف التوسل ،
وأن غاية موجود الانسان وأنفس ذخائره نفسه جلت أو قلت (ص ١٥٤) .

وكذلك لم يميزوا أن يكتبوا بمثل "أبقاك الله وأمتع بك" إلا إلى الحرمة والأهل والتابع والمنقطع اليك . وأما في كتب الإخوان فغير جائز، بل مذموم مرغوب عنه؛ ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات ^(١) :

أحلت عما عهدت من أدبك * أم نلت ملكا فتهت في كتبك
أم هل ترى أن في التواضع لا * إخوان نقصا عليك في حسبك ^(٢)
أتعبت كفيك في مكاتبتى * حسبك مما يزيد في تعبك ^(٣)
إن جفاء كتاب ذى أدب * يكتب في صدره : "وأمتع بك" ^(٤)
فكتب إليه محمد بن عبد الملك :

أنكرت شيئا فليست فاعله * فلن تراه يخط في كتبك ^(٥)
فأعف فدتك النفوس عن رجل * يعيش حتى المات في أدبك ^(٦)
كيف أخون الإخاء يا أملى * وكل شيء أنال من سببك ^(٧)
إن يك جهلا أتاك من قبلى * فعد بفضل على في أدبك ^(٨)

(١) وردت هذه المكاتبات في أدب الكتاب مع اختلاف قليل (أنظر ص ١٦١ و ١٦٢) .

(٢) رواية العقد :

أم هل ترى أن في ملاطفة الإخاء * واث تقصا عليك في أدبك

(٣) في العقد : « حسبك مما لقيت » .

(٤) رواية العقد .

أكان حقا كتاب ذى مفة * يكون في صدره : وأمتع بك

(٥) في العقد : « ولن » وهو أدق .

(٦) رواية الصولى : « في كنفك » وهى أنسب ولا يقع بها في البيت إبطاء .

(٧) رواية الصولى : « كيف يحول الإخاء ... وكل خير » الخ .

(٨) رواية الصولى :

إن كان ذنبا جناه ذو مفة * فعد بفضل عليه من أدبك

ورواية ابن عبد ربه :

إن يك جهل أتاك من قبلى * فعد بفضل على من حسبك

(٧)

وأما صدور السلف فإنما كانت : من فلان بن فلان إلى فلان . كذلك جرت
كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلاء بن الحضرمي ، وإلى أقيال اليمن ،
وإلى كسرى وقيصر ، وكتب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى استخلص الكتاب هذه
المحدثات من بدائع الصدور ، وأستنبطوا لطيف الكلام ، ورتبوا لكل رتبة ،
وجروا على تلك السنة الماضية إلى عصرنا هذا في كتب الخلفاء والأمراء ، وثبتوا
على ذلك المنهج في كتب الفتوحات والأمانات والسجلات .

(٨)

ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ألا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به
دونه . وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك بمخاطبة العوام في قوله :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم * مَدَّقُ الحديث يقول ما لا يفعل

فهذا معنى صحيح في المدح ، ولكنهم أجلوا أقدار الملوك أن يمدحوا بما يمدح به
العوام ، لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد ، وإن كان مدحا فهو واجب على كل ،
والمملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة ، وإنما يحسن مدحهم بالنوافل ، لأن المسامح
لو قال لبعض الملوك : إنك لا ترضى بحليلة جارك ، وإنك لا تخون ما أستودعت ،
وإنك تصدق في وعدي ، وتني بعهدك ، كان قد أثنى بما يجب ، ولكنه لم يصل
بثأته إلى مقصده ، وقال ما لا يستحسن مثله في الملوك .

(١)
ونحن نعلم أن كل أمير تولى من أمور المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين ، غير أنهم
لم يطلقوا هذه اللفظة إلا للخلفاء خاصة ، ونعلم أن الكيس هو العقل إذا عُنوا به

(١) في العقد : « يتولى » .

ضد الحمق ، وليحك لو وصفت رجلا فقلت : إن فلانا لعاقل ، كنت قد مدحته
عند الناس ، ولو قلت إنه كئيب كنت قد قصرت في وصفه ، وقصرت به عن
قدره^(١) ، إلا عند أهل العلم باللغة ، لأن العامة لا تلتفت إلى معنى الكلمة إلا إلى حيث
جرت منها العادة في استعمالها في الظاهر ، مع الحداثة والغرة^(٢) وخساسة القدر ، وصغر
السن ، فقد روينا عن علي رضي الله عنه أنه تبحر بالكيس حين بنى [سجىن]^(٥)
الكوفة وقال :

أما ترانى كيسا مكيسا * بنيت بعد نافع مخيسا^(٦)
حصنا حصينا وأميرا كيسا^(٨)

وقال آخر :

* ما يصنع الأحمق المرزوق بالكيس *

ونعلم أن الصلاة رحمة ، غير أنهم قد حرموها إلا على الأنبياء ، كذلك روى
عن ابن عباس رضي الله عنه . وسمع سعد بن أبي وقاص أخا له يلبى ويقول :^(٩)
يا ذا المعارج ، فقال : نحن نعلم أنه ذو المعارج ، ولكن ليس كذلك كما نلبي على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما كنا نقول : لبيك اللهم لبيك !

-
- (١) رواية العقد : « وصغرت من قدره » .
(٢) عبارة العقد : « إذ كان استعمال
العامة لهذه الكلمة مع الحداثة والغرة . الخ » .
(٣) في الأصل « الغرة » وهو تحريف .
(٤) في العقد : « تسمى بالكيس » . وربما كان الأصوب « المكيس » وفي فتوح مصر لابن
عبد الحكم إن أهل مصر كانوا يسمون عبد الله بن عبد الملك « مكيسا » ص ١٢٢ (٥) زيادة
ضرورية عن العقد .
(٦) نافع : سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء وكان من قصب فكان
المحبوسون يهربون منه .
(٧) المخيس : سجن بالكوفة بناه أمير المؤمنين على بعد سجن نافع .
(٨) في اللسان : « بابا كبيرا وأمينا كيسا » .
(٩) عبارة العقد : « وكذلك نعلم » .
(١٠) في العقد : « ابن أخ له » .

وكان أبو إبراهيم المزني قال في بعض ما طالب به داود بن خلف الأصبهاني :
وإن قال كذا فقد نرج من الملة والحمد لله ، فانتقد عليه ذلك داود وقال : تجمد الله
على أن يخرج مسلم من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ،
ونحن نقول على المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٩)

“ فامثّل هذه الرسوم والمذاهب ، وأجر على آدابهم ، فلكلّ رسومٍ امتثلوها .
وتحفّظ في صدور كتبك وفصولها ، وأفتتاحها وخاتمها ، وضع كل معنى في موضع
يليق به ، وتخيّر لكل لفظة معنى يشاكلها . وليكن ما تختم به فصولك في موضع
ذكر الشكوى بمثل : والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وفي موضع ذكر
البلوى : نسأل الله دفع المحذور ، ونسأل الله صرف السوء ؛ وفي موضع ذكر المصيبة
بمثل : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وفي موضع ذكر النعم بمثل : والحمد لله خالصا
والشكر لله واجبا ؛ فإنها مواضع ينبغى للكاتب تفقدها ، فإنما يكون كاتباً إذا وضع
كل معنى في موضعه ، وعلق كل لفظة على طبقها من المعنى ، فلا يجعل أول
ما ينبغى له أن يكتب في آخر كتابه ولا آخره في أوله ؛ ” فإني سمعت جعفر بن محمد
الكاتب يقول : لا ينبغى للكاتب أن يكون كاتباً حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر
أول كتابه ولا يقدم آخره .”

الحصن بنهم الحذف ١٧٠١

- (١) في العقد « إبراهيم » فقط . (٢) في الأصل : « داود بن علي خلف » وهو تحريف ، والتصويب
عن العقد . (٣) في العقد : « فنقض عليه ذلك داود » . (٤) في العقد : « وإنما يقال
في المصيبة » . (٥) في العقد : « فان هذه المواضع يجب على الكاتب أن يتفقدوها ويحتفظ بها » .
(٦) في العقد « فان الكاتب إنما يصير كاتباً » . (٧) في الأصل « طبقها » وهو تحريف ، والصواب
عن العقد . (٨) في الأصل : « ولا أوله في آخره » . (٩) هو جعفر بن محمد بن خالد بن ثوبة .
أنظر معجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ٣٧ (١٠) عبارة العقد : « لا يكون الكاتب كاتباً » وهي أدق .

(١١)

١١ ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لأن الشعر موضع اضطرار فاعتفروا فيه الإغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والإضمار في موضع الإظهار : فن الحذف قول الخطيئة : "من صنع سلام" يريد سليمان بن داود ، وكقول الآخر : "والشيخ عثمان أبو عفان" ، وكقول الآخر :

وسائلةٍ بشعلبة بن سَير * وقد علقت بشعلبة العلوقة^(٤)

أراد ابن سيار ، وكقول النابغة :

(١) عبارة العقد ونهاية الأرب :

«وكذلك لا يجوز أيضا في الرسائل والبلاغات المشورة ما يجوز في الأشعار الموزونة . لأن الشاعر مضطر . والشعر مقصور مقيد بالوزن والقوافي ، فلذلك أجازوا لهم صرف ما لا ينصرف من الأسماء وحذف ما لا يحذف منها ، واعتفروا فيه سوء النظم ، وأجازوا فيه التقديم والتأخير ، والإضمار في موضع الإظهار ، وذلك كله غير سائغ في الرسائل ، ولا جائز في البلاغات» ص ١٩ ، ٢٠ ج ٣ .

(٢) ورد البيت في العقد كاملا :

فيها الرماح وفيها كل سابعة * جدلاء مسرودة من صنع سلام

والشطر الأخير ، رد في المرزهر هكذا :

* جدلاء محكمة من صنع سلام *

(ص ٢٥١ ج ٢ طبع بولاق)

وورد في الجواليقي ص ٨٥ طبع أوربا :

* جلاء محكمة من صنع سلام *

وظاهر ان (جلاء) محذوفة عن (جدلاء) .

(٣) ينبغي أن نلاحظ أن أكثر أهل مصر يقولون : «فلان أبو فلان» بمعنى «ابن فلان» ،

ويمكن أن يكون هذا بقية من بعض التعابير القديمة . وقد ورد البيت كاملا في العقد ، وصدده :

من نسج داود أبي سلام . (٤) العلوقة بالفتح : المنية .

* ونسج سليم كل قضاء ذائل^(١) *

يريد سليمان •

وكذلك ينبغي في الرسائل ألا يصغر الاسم موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزا

على مثل قولهم : دويبية وجديل وعديق^(٢) •

(١) قضاء : على وزن شداد الدرع المحكمة • وذائل : طويل الذيل • وفي الأصل « كل قضاء نازل » وهو تحريف • وصدر البيت : وكل صموت ثلثة تعلية • أنظر المزهر ج ٢ ص ٢٥١ والعقد الثمين في دواوين الستة الجاهليين ، طبع لندن ص ٢٣ — وفي العقد الفريد شواهد للحنظف غير ما مر وهي :
* قواطنا مكة من ورق الحما *

يعنى الحمام •

وقول الآخر : * صفر الوشاحين صموت الخلل * يريد : الخلل
وقول الآخر : * دارلسلمى إذه من هواك * يريد : إذهى
وقال الآخر :

ولست بآتية ولا أستطيعه * ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

أراد : ولكن

وزاد المزهر قول الآخر :

فان تسنا الأيام والعصر تعلموا * بنى قارب انا غضاب لمعبد

أراد : عبد الله ، لتصريحه به في بيت آخر من القصيدة

وقال آخر :

* هوى بين أطراف الأسته هوبر *

يريد : ابن هوبر « انظر بقية الشواهد ص ٢٥١ ج ٢ » •

(٢) في الأصل « عزيق » بالزاي المعجمة وهو تحريف • وأضاف العقد : « جديل : تصغير جدل ،

وعديق : تصغير عديق » وزاد الشواهد الآتية :

قال الشاعر وهو ليبي :

وكل أناس سوف تدخل بينهم * دويبية تصفر منها الأنامل

وقال الحباب بن المنذر يوم سقيفة بنى ساعدة : أنا عديقها المرجب ، وجديلها المحكك •

ومما لا يجوز في الرسائل : كلمت إياك وأعني إياك ^(١) .

وإساءة النظم في التأليف في الشعر كثير .

وتكون الكلمة بشعة حتى إذا وضعت موضعها وقُرنت مع أخواتها حسن حالها

ورأقت ، كقول الحسن بن هانئ :

* ذو حُضْر أفلت من كد القبل *
والكّد كلمة قلقية لا سيما في الرقيق والغزل والتشبيب ، غير أنها لما وقعت

في موضعها حسنت ، كما أن اللفظة العذبة إذا لم توضع موضعها نفرت ، قال :

رأت عارضا جونا فقامت غريرة * بمسحاتها قبل الظلام تبادره

فأوقع الحلف الجاني هذه اللفظة غير موقعها ، وظلمها إذ جعلها في غير مكانها ، لأن المساحي لا تكون ولا تصلح للغرائر ، وأين كان عن قول الشاعر :

غرائر ما حدثن يهدين أنسة * فما فوقه منهن غير غرائر ^(٢)

حديث لو أن العصم تُدعى به أتت * ودون يد الفحشاء حد البواتر ^(٣)

فتخير من الألفاظ أرجحها وزنا ، وأجزلها معنى ، وأليقها في مكانها [وأشكلها ^(٤)

في موضعها] .

(١) زاد في العقد أن هذا جائز في الشعر . قال الشاعر :

وأحسن وأجمل في أسيرك أنه * ضعيف ولم يأمر كأياك أسر

وقال الراجز :

* إياك حتى بلغت إياك *

(٢) كذا في الأصل والمعنى غير ظاهر . وربما جاز أن تقرأ « لما فوقه منهى غير غرائر » ويكون

المراد أن أولئك الحسان تغلب عليهن العزة والسداجة حين يكون الحديث لمحض الانس ، فإذا أريد بالحديث ما فوق ذلك من أمارات الرية عدن غير غرائر واعتصمن بسوء الظن .

(٣) العصم جمع أعصم ، وهو من الأطباء والوعول ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض ، وسائر أسود

أو أحمر ، والمؤنث عصماء . والعصم معروفة بشدة النفور . ولذلك صح للشاعر أن يصف حديث الملاح

بالقدرة على جذب النوافر من الوعول والأطباء . (٤) زيادة عن العقد .

(١٢)

ولیکن فی صدر کتابک دلیل واضح علی مرادک، وافتتاح کلامک برهان شاهد علی مقصدک^(١) حیثما جريت فيه من فنون العلم، وزعت نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات، فإن ذلك أجزل لمعناک، وأحسن لآتساق کلامک . ولا تطيلق صدر کلامک إطالة تخرجه من حدّه، ولا تقصر به عن حقه .
ولو صور اللفظ وكان له حدّ لوقفنک علیه، غير أنهم فی الجملة کرهوا أن يزيدوا سطور کتب الملوك علی سطرین ؛ وهذه إشارة لا تعبر إلا عن الجملة من المقصود إليه، لأن الأسطر غير محدودة .

(١٣)

وأعلم أن أول ما ينبغی لك أن تصلح آلتک التي لا بدّ لك منها، وأدواتک التي لاتم صناعتک إلا بها: وهي دواتک، فأبدأ بعمارتها وإصلاحها،^(٢) وتخير لها اليقة نقيه من^(٣)
(١) هذا يذكر بكلمة ابن المقفع « وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته . انظر البيان والتبيين ص ٩١ ج ١ وزهر الآداب ص ٩٦ ج ١ طبع سنة ١٩٢٥ . (٢) الدواة جمعها دوى مثل نواة ونوى . وهن دويات مثل نويات، ودوى أيضا بضم الدال وتشديد الباء مثل قناة وفتى، قال أبو ذؤيب .
عرفت الديار كرقم الدوى * يحسبه الكاتب الحميري
وقال زهير :

أمن آل سلهى عرفت الطلولا * كخط الدوى ما ثلاث متولا

(٣) الليقة ما يوضع في الدواة من صوف أو خرقة، فان كانت من القطن خاصة فهي الكرشف . ويقال لقت الدواة إذا أصلحتها وسوّدت مدادها فأنا أليقتها إلاقه، فهي ملاقة وأنا مليق، وفي لغة أخرى لقيتها فأنا أليقتها ليقا . وقد لاقت الدواة نفسها أى اسودت، فهي لاققة . ومن هذا قيل : ما لاقت المرأة عند زوجها، أى ما لصقت بقلبه . وفلان ما يليق شيئا : أى ما يثبت في يده شيء . قال الشاعر :
تقول اذا أهلكت ما للذة * قتيبة هل شيء بكفلك لاق

ومنه قول الأصمعي : دخلت على الرشيد في بعض قدماتي فقلت : « ما ألاقني الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين » أى ما ألصقت بها ولا قبلته . انظر أدب السجّاب ص ٩٩ ، ١٠٠ وكتاب السجّاب ص ٩٤

الشعر والودح^(١) لثلا يخرج على حرف قلمك ما يفسد كتابك ، ويشغلك بتنقيته ؛ وخذ من المداد الفارسي خمسة دراهم ، ومن الصمغ العربي درهما ، وعفصا مسحوقا نصف درهم ، ورماد القرطاس المحرق درهمين ، ثم تسحقها وتغربلها وتجمعها ببياض البيض ، ثم بندقها وأجعلها في الظل ، فإذا آختجت إليها أخذت منها مقدار حاجتك فكسرتة وحشوت به دواتك ؛ وإذا نقتته في ماء السلق حتى ينحل ويذوب ويختمر ثم أمددت من مائه دواتك كان أجود وأنقى . ثم اختر بعد ذلك من أنابيب القلم^(٢) الذي يصلح لكاتبه القراطيس أقله عقدا ، وأكثفه لحما ، وأصلبه قشرا ، وأعدله استواء ، وتجنب الأقلام الفارسية ما أستطعت فإنها ما تصلح إلا للكواغد والرقوق .

(١٤)

د^١ وأجعل لقلمك براية حادة ، فإن تعثر يد الكاتب وقت قطع القرطاس ناقص مروءته ، ومحل بظرفه .

وإن قدرت ألا تقطع القرطاس اذا فرغت من كتابك إلا بنحطوم قلمك فأفعل ، فإن ذلك أكمل لمروءتك ، وأبدع لظرفك وقطعك .

(١) الودح بالذال المعجمة ما تعلق بأصواف الغنم ، وفي الأصل « الودح » بالذال المهملة . وهو تحريف .

(٢) الأنابيب جمع أنبوب وهو من القصب والقنا . قال امرؤ القيس :

وكشح لطيف كالجديل نخصر * وساق كأنبوب السق المذل

ولا يسمى الأنبوب قلما حتى يقطع (انظر كتاب الكتاب ص ٩٣)

(٣) في الأصل « عقدة » وهو تحريف ، والصواب عن العقدة .

(٤) في الأصل « أجلبه » وما أثبتناه أنسب وهو يطابق ما في العقد .

واستعمل لبرى القلم سكيناً طواويسياً، مذلق الحد، وميض الطرف، فيكون ذلك عوناً لك على برى أقلامك، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس؛ ولئن قيل: كأنه الرمح الرديني فقد قال الكاتب: كأنه القلم البحري. وتفقد الأنوبة قبل برّيكتها لثلاثاً تجعلها منكوسة، وأبرها من ناحية نبات القصبية، وأرهف ما قدرت جانبي قلمك، ليرد ما أنتشر من المداد، ولا تطل شقّه فإن القلم لا يميح المداد من شقّه إلا مقدار ما احتملت شبّته، فأرفع شبّته ليجمعاً لك حواشي تحضيره. وأما قط القلم^(٢) فعلى قدر القلم الذي يتعاطاه الكاتب من الخط، غير أن المسلسل لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربع القط، كما أن كتب الملوك والسجلات لا تحسن إلا بالقلم المحرف الكوفي، وأما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه، والمقصود إليه في النوائب والمهمات.

القلم

(١) السكين يذكر وقد يؤنث، فن تذكره قول أبي ذؤيب:

يرى ناصحاً فيما بدا فاذا خلا * فذلك سكين على الخلق حاذق

أى قاطع، وفي تأنيها يقول بعض بن ثعلب:

فأنحى للسنام غداة قر * بسكين موثقة النصاب

(أنظر أدب الكتاب ص ١١٥، ١١٦).

(٢) قال الصولي في أدب الكتاب: « يقال: قططت القلم أقطه قطا. والقط والقد متقاربان: لأن القط أكثر ما يستعمل فيما وقع السيف في عرضه، والقد لما وقع في طوله. ومنه قولهم: كانت أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضوان الله عليه إذا علا بسيفه شيئاً فده، وإذا أعترضه قطه. وقد يحمل هذا على هذا. وقال عمرو بن معد يكرب:

فكم قط سيقى من قونس * غداة التقينا ومن مفروق

ومط حاجبيه ومدّ بمعنى، وإتماً جاز ذلك في قدّ وقط ومدّ ومط لأن مخرج الطاء والذال في مكان واحد من أصول النبايا وطرف اللسان، كما يقال: طين لازب ولازم، لأن مخرج الباء والميم من الشفة في مكان واحد. أنظر ص ١٠٩، ١١٠ — قال ابن درستويه: « وتقول: قططت القلم قطا إذا قططت من طرفه المبرى ليستوى » كتاب الكتاب ص ٩٣

(١)
ورأيت كثيرا من الكتاب يختارون قلم النرجس لتجمعه وتجانسه ومن اللازورد
أبسط منه وأقوم حروفا . وأما الموشع والمولع والمدبج والمنمّم والمسمّم فعلى قدر
رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه .

وأما حسن الخط فلا جدّ له . قال علي بن زير النصراني الكاتب : أعلمك
الخط في كلمة واحدة : لا تكتبن حرفا حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف
المبدوء به ، وتجعل في نفسك أنك لا تكتب غيره ، حتى لا تعجل عنه الى غيره .

(١٥)

وإياك والنقط والشكل في كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أن
المكتوب إليه يعجز عن استخراجها ، فلا أن يُشكّل على الحرف أحبّ الى من أن
يعاب بالنقط والإعجام .

وقال المأمون لكتابه : إياكم والشونيز في كتبكم ، يعني النقط [والإعجام] .
ولذلك قال ابن هاني :

لم ترض بالإعجام حين كتبتك * حتى شككت عليه بالإعراب

(١٦)

ولا تغفل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد قال أبو العيناء : ان
بني أمية هم الذين كانوا أمروا كتابهم فطرحوا ذلك من كتبهم ، فخرت عادة الكتاب

(١) غير واضح وجود "من" هنا ، ولو حذف لاستقام الكلام .

(٢) في العقد : « فاني سمعت سعيد بن حميد الكاتب يقول : لأن يشكّل على الحرف . الخ » .

(٣) في الأصل « إياي » والتصحيح عن العقد . (٤) زيادة عن العقد .

(٥) في الأصل : « حتى كتبت السب » وهو تحريف ، والتصحيح عن أدب الكتاب ص ٦١

وهذا البيت من قطعة مستملحة لأبي نواس أولها :

يا كاتباً كتب الغسدة يسني * من ذا يطبق براعة الكتاب !

الى يومنا هذا على ما سنوه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تجعلوني كقدح
الراكب ، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره » صلى الله عليه وعلى آله
وسلم أولا وأوسط وآخره .

وأحب أن تجعل بدل الإشارة التراب فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« أتربوا كتبكم فإنه أنجح للحاجة »^(٢) .

(١٧)

ولا تدع التاريخ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها ، وأنظر الى ما مضى
من الشهر وما بق منه : فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قلت لكذا ليلة
مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف قلت لكذا أيضا بقيت .
وقد قال بعض الكتاب : إن الماضي من الشهر تخصيصه والباقي لالتخصيه ، لأنك لا تدري

التاريخ

(١) « الإشارة » بضم الهمزة هي نشارة الخشب ، والكلمة الثانية أكثر استعمالا ، جاء في الجزء الأول
من نفع الطيب ج ١ ص ٧٧ طبع ليدن : إن العربي كتب كتابا فأشار عليه أحد من حضر أن يذر عليه
نشارة ، فقال :

لا تشنه بما تذر عليه * فكفاه هبوب هذا الهواء

فكان الذي تذر عليه * جدرى بوجنة حسنة

(٢) راجع ما جاء في إتراب الكتب في « منتخب كنز العمال » على هامش مسند ابن حنبل ج ٤
ص ٦٦ ، وظاهر أن للكتاب بدا في أكثر ما وضع من الأحاديث خاصة بمهنة الكتابة وأدواتها . وقد نص
الصول على أنه لا يقال : « أترب كتابك » وهذا الشاهد يتقضى ما قال .

(٣) انظر ص ١٨٠ وما بعدها من أدب الكتاب وص ٨٥ وما بعدها من كتاب الكتاب .

(٤) في الأصل « أن تخصيه » .

(١) أَيْتَمُ الشَّهْرُ أَمْ يَنْقُصُ؟ وَليْسَ هَذَا بِشَيْءٍ ، لِأَنَّ تَارِيخَ الْكُتَابِ لَيْسَ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي شَيْءٍ ، وَمَا عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَّا بِمَا ظَهَرَ وَتَيَّنَ لَا بِمَا يَظُنُّ .

(١٨)

وَلَا تَجْعَلُ سَحَاةَ كِتَابِكَ غَلِيظَةً إِلَّا فِي الْعَهُودِ وَالسَّجَلَاتِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى خَوَاتِمِهَا وَطَوَابِعِهَا ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَيْسَى الْكَاتِبِ كَاتِبَ آلِ طَاهِرٍ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ كَتَبَ إِلَى الْعِرَاقِ فِي إِشْخَاصِ كَاتِبٍ كَانَ كَتَبَ إِلَيْهِ فَكَتَبَ وَغَلَّظَ سَحَاةَ كِتَابِهِ ، فَرَدَّ الْكُتَابَ إِلَيْهِ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ رَاجِعًا لِبَرِّهِ وَجَائِزَتِهِ ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ : إِنْ كَانَ مَعَكَ مَسْحَاةٌ فَأَقْطَعْ خِزْمَ كِتَابِكَ وَأَنْصِرْفِ وَرَاءَكَ .

وَكَذَلِكَ لَا تُعْظَمُ الطَّيْنَةُ ، فِي الْمِثْلِ : مِنْ عَظَمِ الطَّيْنَةِ فَإِنَّهُ مَلُومٌ . وَلَا تَطْبَعُهَا إِلَّا بَعْدَ عُنْوَانَاتِهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُرَادٌ مِنْهُمْ .

X وَقَدْ يَجِبُ عَلَيْكَ عِلْمُ الْإِصْاقِ الْقِرَاطِيِّسِ وَمَحْوِهَا . وَلَمْ أَرِ شَيْئًا فِي الْإِصَاقِهَا الْأَطْفِ مِنْ أَنْ يُنْقَعِ الصَّمْعُ الْعَرَبِيُّ فِي الْمَاءِ سَاعَةً حَتَّى يَذُوبَ ثُمَّ يُلْصِقُ بِهِ ، وَكَذَلِكَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَوْ » .

(٢) السَّحَاةُ مِثْلُ عِظَاةٍ ، وَالسَّحَاةُ مِثْلُ عِظَايَةٍ : مَا شَدَّ بِهِ الْكُتَابُ مِنْ خَيْطٍ وَنَحْوِهِ ، تَقُولُ سَحَوْتُ الْكُتَابَ أَسَحَوْتُهُ سَحْوًا ، وَسَحِيئَتُهُ أَسْحَاءُ سَحِيئًا ، وَالْوَاوُ أَكْثَرُ . وَزَادَ ابْنُ دُرَيْسٍ : أَسْحَيْتُ الْكُتَابَ فَأَنَا أَسْحِيئُهُ إِسْحَاءً وَإِسْحَاءَةٌ حَسَنَةٌ فَأَنَا مَسْحٌ . وَإِذَا كَانَتْ كَتَبٌ كَثِيرَةً قُلْتُ : سَحَيْتُهَا ، بِالشَّدِيدِ . فَأَنَا أَسْحِيئُهَا تَسْحِيئَةً ، وَأَنَا مَسْحٌ وَهُوَ مَسْحِيٌّ .

(٣) يُقَالُ : طَيَّنْتُ الْكُتَابَ إِذَا جَعَلْتُ عَلَيْهِ طِينَ الْخَاتَمِ ، وَيُقَالُ طَنَّتُ الْكُتَابَ أَطْيِنُهُ . فَإِذَا أَمَرْتُ قُلْتَ : طَيْنَ كِتَابِي ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : طَيْنَ كِتَابِي . وَالطَّيْنَةُ : الطَّابِعُ عَلَى الْكُتَابِ وَالصِّكُّ . وَالْآنَ يَسْتَعْمَلُ الشَّمْعَ مَكَانَ الطَّيْنِ ، فَإِذَا أَمَرْتُ قُلْتَ : شَمَعْتُ كِتَابِي .

(٤) فِي الْأَصْلِ « مَظْلُومٌ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٥) فِي الْأَصْلِ « مِهْمٌ » بِالْبَاءِ الْمَوْحَدَةِ وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

ماء الكثير أو النشاستح ، ثم تطويه طيارقيا وتجعله في مندبل نظيف ويوضع تحت
وسادة حتى يجف . وأما محوها فعلى قدر لطف الكاتب وتأنيه ، غير أنه ينبغي له
ألا يلقط السواد من القرطاس إلا بمثل الشمع المسخن واللبن المضوغ وما أشبههما ،
ثم يكون لقطه رويداً رويداً كلما لقط جانباً حوله الى الجانب الآخر .

(١٩)

وأما قراءة الكتب المحتومة والتلطف لفض خواتمها ، فما لا نذكره خوفاً من
سفيهه .

وأما تضمين الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه ففيه أدب ، وقد تعلقت
العامّة بالقمى والأصبهانى ، فيجب أن تبدل الحروف تبديلاً ينجى . وألطف من ذلك
أن تأخذ لبناً حليياً فتكتب به في قرطاس ، فيدّر المكتوب إليه عليه رمادا حاراً من
رماد القراطيس فإنه يظهر . وإن كتب بماء الزاج وذّر عليه العفص المدقوق بزاج
أو بماء العفص وذّر عليه شيئاً من الزاج أو ينقع شيئاً من وشق ثم تكتب به

- (١) الكثير طلع النخل . وهو في كتب اللغة « الكثر » بالفتح والتجريك .
- (٢) قال الخفاجى في شفاء الغليل في كلامه على نشا انه معرب نشاسته وقال الجوهرى هو النشاستح فارسى معرب حذف شطره تخفيفاً كما قالوا للنازل منا .
- (٣) فى الأصل « يرفع » .
- (٤) الضمير عائد على القراطيس ، وليلاحظ أن المؤلف ذكر الضمير قبيل ذلك اذ قال : « ثم تطويه طيارقيا وتجعله في مندبل نظيف » .
- (٥) فى الأصل « لنقض » وهو تحريف (انظر ص ١٢٤ من أدب الكتاب للصوى) .
- (٦) فى الأصل « طيباً » وهو تحريف . (انظر صبح الأعشى ص ٢٢٩ ج ٩) .
- (٧) فى الأصل « بجاز » وهو تحريف (انظر صبح الأعشى) .
- (٨) الوشق : نوع من العشب ، وكان مما تجر به العروس عند الجلوة ، كما أفادنا الأستاذ مرسية ونحن نراجع معه هذه النصوص .

ثم نثرت عليه الرماد فإنه يظهر، وإن أحببته لا يُقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه
بمرارة السلفحة^(٢).

(٢٠)

وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب فزِنِ اللفظة قبل أن تخرجها بميزان
التصريف إذا عرّضت، والكلمة بعياره إذا سنحت؛ فربما مر بك موضع يكون
مخرج الكلام إذا حسب أنا فاعل أحسن من أنا فاعل، وأستفعلت أحلى من فعلت .
وأدر الألفاظ في أما كتبها، وأعرّضها على معانيها، وقلّبها على جميع وجوهها،
حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نافرة، فمقي صارت كذلك هجّمت الموضع الذي

(١) في هذه الأسطر ركاكة وضعف .

(٢) بمناسبة إخفاء ما في الكتاب قال في صبح الأعشى ص ٢٢٩ ج ٩

«وقد ذكروا لذلك طرقاً : منها أن يكتب في الورق بلبن حليب قد خلط به نوحادر، فإنه لا ترى فيه
صورة الكتابة فإذا قرب من النار ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب في الورق أيضاً بماء البصل المعتصر منه فلا ترى الكتابة، فإذا قرب من النار
ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب فيما أراد من ورق أو غيره بماء قد خلط فيه زاج فلا تظهر الكتابة، فإذا مسح بماء قد
خلط فيه العفص المدقوق ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب في الورق غير المنشى بالشب المحلول بماء المطر ثم يلقيه في الماء أو يمسحه به
فإنه إذا جف ظهرت فيه الكتابة .

ومنها أن يكتب بمرارة السلفحة فإن الكتابة بها ترى في الليل ولا ترى في النهار .

ومنها أن تأخذ الليمون الأسود وعروق الحنظل المقلّوة بزيت الزيتون جزأين متساويين وتسحقهما
ناعماً ثم تضيف إليهما دهن صفار البيض وتكتب به على جسد من شئت فإنه يثبت الشعر مكان الكتابة
وهو من الأسرار العجيبة، فإذا أريد إرسال شخص بكتاب إلى مكان بعيد فعل به ذلك، فإنه إذا نبت
الشعر قرئت الكتابة . وفي ص ١٠٧ من أدب الكتاب كلمة عن الكتابة في الرأس، وفي ص ٢٢ من البيان
المعرب طبع دوزي كلمة عن وضع الكتابة في الخبز .

(٣) في نهاية الأرب ج ٧ ص ١٨٨ : « وأدر الكلام في أما كتبه . الخ » .

الى هنا ينهي الخلد
(٢٠٠٩)

أردت تحسينه . [وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه] ^(١) وأعلم أن الألفاظ
في [غير] ^(٢) أما كتبها [والقصد بها إلى غير مظاهرها] ^(١) كترقيع الثوب الذي إذا لم تشابه
رقاعه [ولم تتقارب أجزاءه ، خرج عن حدّ الجِدَّة و] تغير حسنه ؛ قال الشاعر :
إن الحديد إذا ما زيد في خَلْق * تبين الناس أن الثوب مرقوع

(٢١)

وآرتصد لكاتبك فراغ قلبك ، وساعة نشاطك ، فتجد ما يمتنع عليك بالكبد
والتكلف : لأن سماحة النفس بمكنونها ، وجود الأذهان بمخزونها ، إنما هو مع الشهوة
المفرطة في الشيء ، والمحبة الغالبة فيه ، أو الغضب الباعث منه ذلك . قيل لبعضهم :
لم لا تقول الشعر؟ قال : كيف أقوله وأنا لا أغضب ولا أطرب ^(٣) للصنعة
→ وهذا كله إن جريت من البلاغة على عِرْق ، وظهرت منها على حظ ؛ فأما إن
كانت غير مناسبة لطبعك ، ولا واقعة شهوتك عليها ، فلا تُنص مطيتك في التماسها ،
ولا تتعب بدتك في ابتغائها ، وأصرف عنانك عنها ، ولا تطمع فيها باستعارتك ألفاظ
الناس وكلامهم ؛ فإن ذلك غير مشمر لك ولا يُجِد عليك . ومن كان مرجعه فيها
إلى اغتصاب ألفاظ من تقدم ، والاستضاءة بكوكب من سبقه ، وسحب ذيل حلة
غيره ، ولم يكن معه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه ، الكلام الحر والمعنى
الجزل ، فلم يكن ^(٤) من الصناعة في غير ولا نغير .

(١) زيادة عن نهاية الأرب .

(٢) زيادة ضرورية .

(٣) في الأصل : « الشر » .

(٤) انظر وصية بشر بن المعتمر في البيان والتبيين ص ١٠٤ ج ١ ووصية أبي تمام للبحرئ

في زهر الآداب ص ١٠١ ج ١

(٥) اقترن الخبر هنا بالفاء ، وذلك جائز إذا كان المبتدأ عاماً كما هنا . وكقوله تعالى : (وما بكم من

نعمة من الله) .

احالة المعنى
في النسخة

(٢٢)

على أن كلام العظماء المطبوعين ودرس رسائل المتقدمين ، على كل حال ، مما يفتق اللسان ، ويوسع المنطق ، ويشهد الطبع ، ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجية .

قال العتّابي : ما رأينا فيما تصرفنا فيه من فنون العلم ، وجرينا فيه من صنوف الآداب ، شيئا أصعب مراما ، ولا أوعر مسلكا ، ولا أدل على نقص الرجال ورجاحتهم ، وأصالة الرأي وحسن التمييز منه واختياره ، من الصناعة التي خطبتها ، والمعنى الذي طلبته . وليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ وقصديك بها الى موضعها ؛ لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتها في الفصاحة والحسن ، ولا تحسن في مكان غيرها . وبتمييز هذه المعاني ، ومناسبة طبائع جهابذتها ، ومشكلة أرواحهم ، جعلوا الكتابة نسبا وقرابة ، وأوجبوا على أهلها حفظها .

سهل بن وهب : ^(٢) *Qualis* الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان مفترقة ؛ ومن لم يعرف فضلها ، وجهل أهلها ، وتعدي بهم رتبهم التي وضعهم الله بها ، ^(٣) فانه ليس من الإنسانية في شيء .

قالت البرامكة : رسائل المرء في كتبه دليل على عقله ، وشاهد على غيبه .
قال الشاعر :

وتتكرود المرء في لحظ عينه * وتعرف عقل المرء حين تكاتبه
آخر :

وشعر الفتى يبدي غريزة طبعه * وبالكتب يبدو عقله وبلاغته

(١) في الأصل : « ولا يحسن » بالياء المثناة من تحت .

(٢) في العقد « الحسن » .

(٣) في الأصل : « وصفهم » .

- (١)
الشعبي : يعرف عقل الرجل اذا كتب وأجاب .
العتبي : عقول الناس مدقونة في كتبهم .
ابن المقفع : كلام الرجل وافد عقوله .

(٢٣)

وشبهت الحكاء المعاني بالغواني ، والألفاظ بالمعارض ، فاذا كسا الكاتب البليغ
المعنى الجزل لفظا رائقا ، واعاره مخرجا سهلا ، كان للقلب أحلى ، وللصدر أملا ،
ولكنه بقي عليه أن ينظمه في سلكه مع شقائقه كاللؤلؤ المنشور الذي يتولى نظمه الحاذق .
والجوهرى العالم يُظهر بإحكام الصنعة له حسنا هوفيه ، ويمنحه بهجة هي له ، كما أن
الجاهل إذا وضع بين الجوهريتين خرزة هجن نظمه وأطفأ نوره . كان حبيب بن أوس
ربما وقع على جوهرة فجعلها بين بعرتين . قال الشاعر :

ولو قدرنت بدر فآخر خسرزا * من الزجاج لقلنا بئس ما نظما

والياقوت حسن ، وهو في جيد الحسنة أحسن ، وكذلك الشعر الجيد موق ولكنه
من أفواه العطاء آثق ، والتاج الشريف بهى المنظر وهو على الملك أبهى ، كما قال
ابن [قيس] الرقيات :

* يعتدل التاج فوق مفرقه * ❧

→ قال أبو العتاهية لأبن مناذر : بلغنى انك تقول الشعر فى الدهر ، والقصيد
فى الشهر ، فقال : نعم لو رضيت لنفسى أن أولف تأليفك وأقول :

* يا عتب يادرة العواص *

(١) ربما كان الأصوب « أو » .

(٢) فى الأصل : « ومنحة » .

(٣) زيادة ضروية . واسم ابن قيس الرقيات : عبيد الله ، وهو من شعراء العصر الأموى .

(١)
لقلت في اليوم والليلة ألف قصيدة .

وقال عمر بن بَلَّاحٌ لشاعر : أنا أشعر منك ؛ قال : ولم ؟ قال : لأنك تقول

(٢)
البيت وابن عمه وأنا أقول البيت وأخاه .

(١) الذي في الأغاني أنه اجتمع أبو العتاهية ومحمد بن منذر ، فقال له أبو العتاهية : يا أبا عبد الله ، كيف أنت في الشعر ؟ قال : أقول في الليلة إذا سنع القول واتسعت القوافي عشرة أبيات إلى خمسة عشر . فقال له أبو العتاهية : لكني لو شئت أن أقول في الليلة ألف بيت لقلت ، فقال ابن منذر : أجل ! والله إذا أردت أن أقول مثل قولك :

الا يا عتبه الساعة * أموت الساعة الساعة

قلت ، ولكني لا أعود نفسي مثل هذا الكلام الساقط ولا أسمح لها به ، فنجعل أبو العتاهية وقام يميز رجله !
ص ١١ ج ١٧ طبع الساسي .

وفي ص ٢٩ أن أبا العتاهية لقي ابن منذر بمكة فجعل يمازحه ويضاحكه ثم دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ! هذا ابن منذر شاعر البصرة بقول قصيدة في سنة وأنا أقول في سنة ما بين قصائد ، فقال الرشيد : أدخله إلى فأدخله إليه وقدر أنه يضعه عنده ، فدخل فسلم ودعا ، فقال : ما هذا الذي يحكيه عنك أبو العتاهية ؟ فقال ابن منذر : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : زعم أنك تقول قصيدة في سنة ، وأنه يقول كذا وكذا قصيدة في السنة ، فقال : يا أمير المؤمنين ! لو كنت أقول كما يقول :

الا يا عتبه الساعة * أموت الساعة الساعة

لقلت منه كثيراً ، ولكني الذي أقول :

إن عبد المجيد يوم تولى * هدّ ركبنا ما كان بالمهدود

مادري نعشه ولا حاملوه * ماعلى النعش من عفاف وجود

فقال له الرشيد : هاتها فأشدها ، فأشده ، فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلا في خليفة أو ولي عهد ! ما لها عيب إلا أنك قلتها في سوقة ! وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكاد أبو العتاهية يموت غماً وأسفاً .

(٢) وردت هذه العبارة مختلفة بعض الشيء في البيان والتبيين ص ١٤٩ ج ١ طبع سنة ١٩٢٦

(٢٤)

فإن مُنيت بحب الكتابة وصناعاتها، والبلاغة وتأليفها، وجاش صدرك بشعر
معقود، أو دعتك نفسك إلى تأليف الكلام المنشور، وتهياً لك نظم هو عندك
معتدل، وكلام لديك متسق، فلا تدعونك الثقة بنفسك، والعجب بتأليفك أن
تهجم به على أهل الصناعة؛ فانك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لولده، والعاشق إلى
عشيقة؛ كما قال حبيب :^(٢)

ويبنىء بالإحسان ظناً لا كمن * هو بأبنه وبشعره مفتون^(٣)

ولكن أعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجاً بغيره، فإن أصغوا إليه،
وأذنوا له، وشخصوا بالأبصار واستعادوه وطلبوه منك وامترج^(٤)، فأكشف من تلك
الرسالة والخطبة والشعر اسمه وأنسبه إلى نفسك. وإن رأيت عنه الأسماع منصرفة،
والقلوب عنه لاهية، فاستدل^(٥) به على تخلفك عن الصناعة وتقاصرک عنها، وأسترب^(٦)
رأيك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة : فقد بلغني أن بعض الملوك دعا
إنساناً إلى مؤانسته حتى ارتفعت الحشمة بينهما فأخرج له كتاباً قد غشاه بالجلود
وجمع أطرافه بالإبريسم وسوى ورقه وزخرف كتابته وجعل يقرأ عليه كلاماً قد حبره
فيه وتممه عند نفسه، وجعل يستحسن ما لا يحسن، ويقف على ما لا يستثقل

(١) عبارة الجاحظ : « فان أردت أن تكلف هذه الصناعة، وتنسب إلى هذا الأدب، ففرضت
قصيدة، أو حبرت خطبة، أو ألقت رسالة، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك، ويدعوك بحبك بثمره عقلك
إلى أن تنتحلته وتدعيه » البيان ص ١٤٨ ج ١

(٢) عبر الجاحظ عن هذا المعنى أدق تعبير إذ قال : « فلا تثق في كلامك برأى نفسك، فاني
ربما رأيت الرجل متماسكا وفوق المتأسك حتى اذا صار إلى رأيه في شعره وفي كلامه وفي ابنه رأيت متهافتا
وفوق المتهافت » . (٣) أنظر ديوان أبي تمام ص ٣٣١

(٤) يريد : امترج بغيره من الجيد . (٥) في الأصل « العيون » وقد آثرنا كلمة الجاحظ .
(٦) في الأصل « واهية » وهو تحريف .

قراءته حتى أتى على الكتاب، فقال له: كيف رأيت ما قرأت عليك؟ فقال: أرى
عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه. ففطن له ولم يعاوده إلى أن وقف به على
تسور مسجور ثم قذف بالكتاب في النار. وهذا رجل في عقله فضيلة وفيه تمييز^(٢).
وإنما البلية فيمن إذا بينت له سوء نظمه واختياره، ووقفته على سخافة لفظه،
هجره وعاداك.

(٢٥)

فاجعل هذا الأصل ميزانا تزن به مذهبك في رسائلك وبلاغتك، ولا تخاطبن
لخاصا بكلام عام، ولا عاما بكلام خاص. فمتى خاطبت أحدا بغير ما يشاكله فقد
أجريت الكلام غير مجراه وكشفته. وقصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه
لقدر كلامك ورفع لدرجته، قال:

فلم أمدحك تفخيماً لشعري * ولكني مدحت بك المديحاً^(٣)

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها ونظامها، ومواردها ومصادرها.
وتجنب ما قدرت الألفاظ الوحشية، وارتفع عن الألفاظ السخيفة، واقتضب
كلاما بين الكلامين.

الجاحظ: ما رأيت قوما أمثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب، فإنهم
اتمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطاً سويقياً.

وقال خالد بن صفوان: أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلى كلام، وأحسنه ما لم يكن
بالبدوي^(٤) المغرب، ولا القروي^(٤) المخدج، الذي صحت مبانیه، وحسنت معانيه، ودار

(١) مسجور: موقد.

(٢) فضلة: زيادة وقوة.

(٣) في الأصل «أمدحه» وهو تحريف. راجع ديوان أبي تمام ص ٧١

(٤) المخدج: الناقص.

على ألسن القائلين، وخفّ على آذان السامعين، ويزداد حسنا على مرّ السنين^(٢)،
تجلية الرواة، وتثقية السراة .

والكاتب المستحق اسم الكتابة، والبلغ المحكوم له بالبلاغة، من اذا حاول صنعة
كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من يبايعها، وظهرت من معانها، وبدرت^(٣)
من مواطنها، عن غير استكراه ولا اغتصاب .

احسن

حدثنا صديق للعتابي قال له : اعمل لي رسالة، واستمده مرة بعد أخرى؛ فقال
له : ما أرى بلاغتك إلا شاردة؛ فقال له العتابي : لما تناولت القلم تداعت عليّ
المعاني من كل جهة، فأحببت أن أترك كل معنى يرجع الى موضعه، ثم أجتني لك
أحسنها .

أملى يزيد بن عبد الله أخو دينار على كاتب له وأعجل عليه الإملال فتعثر قلم^(٤)
الكاتب عن تقييد إملاله؛ فقال متحرشا : اكتب يا حمار ! فقال الكاتب :
أصلح الله الأمير ! إنه لما هطلت شآبيب الكلام، وتداقت سيوله على حرف
القلم كل القلم عن إدراك ماوجب عليه تقييده، فليتك ذا الأمير عذرى . فكان
جوابه أبلغ من بلاغة يزيد^(٥) .

- (١) وقع المضارع هنا جميل . (٢) في الأصل : « عمر » .
(٣) في الأصل : « تدرب » وهو تحريف . وبدرت : أسرعت .
(٤) استمده : طلب منه ارضاء المدة، وفي العقد (فاستمده مودة) .
(٥) في العقد « ذبيان » .
(٦) يقال : أمليت الكتاب وأملته . وقد نزل القرآن باللغتين جميعا . قال تعالى : « وقالوا أساطير
الأوّلين اكتتبتها فهى تملى عليه » وقال : « فليجال عليه وليه بالعدل » . (أنظر ص ١٣٥ من أدب الكتاب) .
(٧) أنظر ماجاء في توقف قلم ابن المقفع في أدب الكتاب ص ١٥٨ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٣ .

(٢٦)

وكلمها احلولى الكلام وعذب ورق وسهلت مخارجه ، كان أسهل وأوجا
فى الأسماع ، وأشدّ اتصالا بالقلوب ، وأخفّ على الأفواه ، ولا سيما إذا كان المعنى
البديع مترجما بلفظ موقن شريف ، ومعبراً بكلام مؤلف رشيق ، لم يشنه التكلف^(٢)
بميسمه ، ولم يفسده التعقد باستهلاكه ؛ كقول ابن أبى كريمة :

قفاه وجه حسن والذى * قفاه وجه يشبه الشمسا
فهجن المعنى بتوعر مخارج الحروف . وأخذه الحسن بن هانى فسهله وقال :
* بدّ حسن الوجوه حسن قفاكا *

وكلاهما من حسان حيث يقول :

قفائك أحسن من وجهه * وأمك خير من المنذر

وانظر الى سلاسة الحسن بن سهل حيث قال :

شربت بل لنت بل قابلت ذاك بذا * فأنت لاشك فيك السهل والجبل

وكتب عيسى بن هبة كتابا الى بعضهم فعقد كلامه وجاز المقدار فى التنطع ؛^(٣)

فوقع له :

أنى يكون بليغا * من اسمه كان عيّا

وثالث الحرف منه * إذا كتبت مسيا^(٤)

ودخل كاتب على مريض فوجده يئنّ فخرج من عنده فوجد طائرا يقال له
"الشفانين" بباب الطاق ، فاشتراه وبعث به اليه ، وكتب كتابا يتنطع فيه ، ويذكر

(١) فى الأصل : « لفظ » وهو تحريف .

(٢) عل الصواب : « لم يسمه » .

(٣) فى العقد « الى أخيه أبى الحسن » .

(٤) الشطر الأخير غير واضح المعنى . وفى العقد : « اذا كتبت شيئا » وهو تحريف أغمض .

أنه يقال له الشفانين شفاء من الأئين . فأجابه : لو عطست ضبًا لم تكن عندي
إلا نبطيا ، فأقصر عن بغضك وسهل كلامك . ومثله بمحمد الموصلي يهجو حبيب بن
أوس الطائي :

أنت عندي عربيّ * ليس في ذلك كلام^(٥)
شعر ساقيك ونخ * مذيك نخزأمي ومأم^(٦)
أنا ما ذنبي إن كذ * بنى فيك الأنام^(٧)
وقفًا يحلف ما إن * أعرقت فيه الكرام

وسألني بعض أهل العلم أن أكتب له قصة الى جعفر بن عبد الواحد القاضى
وقال : اكتب لى قصة سهلة بليغة الألفاظ ، فقلت له : دعنى أكتب لك ما يصلح
للقضاة ، فغضب وقال : ما أسأل أن تعطينى شيئًا ، إنما أسألك هذا المعنى الرخيص .
فأحتملت عتبه لذمام^(٨) ، فكتبت له قصة لا تصلح أن تدفع إلا لرؤبة بن العجاج
يقرأها أو الطرماح ، فلما حصلت بيد القاضى أراد قراءتها فإذا هى مغلقة عليه ، فقال
له : أنت كتبت هذه القصة ؟ قال : نعم ، قال : إذا فقرأها ، فذهب ليقراها فإذا

- (١) يشير الى أن الضباب من طعام الأعراب . وكانت الشعبية تعبير العرب بأكل الضباب .
أنظر ص ١٥ من رسالة « الحنين إلى الأوطان » لملاحظ . وفى العقد بقية طويلة ، ص ٢١ ج ٣
(٢) كذا بالأصل والمعنى بها غير واضح . وفى العقد « بعضك » وهى جملة وقعت فى غير مكانها لأن
المؤلف ماض فى الكلام عن تهجين ذلك الكاتب المتنطع .
(٣) لعل الصواب : وتمثل بقول محمد الموصلي ، الخ .
(٤) فى الأصل « عربى » وهو تحريف .
(٥) فى الأصل « عربى والسلام » والذى أثبتناه أوفق بمجموع القطعة كما رواها العقد .
(٦) تمام بالباء المثلثة بخلاف ما كان فى الأصل بالباء المثناة من فوق .
(٧) البيت فى الأصل محرف ، والتصحيح عن العقد . وقد ربنا البيتين الأخيرين بما يناسب رواية
العقد لأنها أوفق . وللقطعة بقية ، فلتراجع هناك . (٨) يريد : لعهد كان له .

هي بالسودانية استعجاما عليه؛ فقال له : أصلح الله القاضي إنما أقرؤها في بيتي؛ فقال له : فاطلب حاجتك أذا في بيتك ! فرجع إلى غضبان أسفاً يشتم ويؤذي ، وسألني أن أكتب له قصة على ما أرى ، فكتبت له كتابا يشبه أن يكون من مثله الى القضاة، فقرأها وقضى حاجته ، وعلم أنه لم يكتب واحدة منهما !
والكتاب اذا لم يكن شبيها بحاجة صاحبه كان أحد الأسباب المانعة .

(٢٧)

والمعاني كلها ممتثلة والكلام مشبعا ولكن سياسته صعبة وتأليفه شديد إلا على جهابذته وفرسانه أمراء الكلام يصرفونه كيف شاءوا . ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، ويكون اللفظ أسبق الى الأسماع من معناه الى القلوب .

الجاحظ : كان لفظه في وزن إشارته ، وطبعه في معناه في مطابقة معناه .
ذكر الحسن بن وهب أحمد بن يوسف فقال : ما كنت أدري ألفظه آنق أم معناه ، أو معناه أجزل أم لفظه .

والمعاني وإن كانت كامنة في الصدور فإنها مصورة فيها ، ومتصلة بها ، وهي كالآلئ المنظومة في أصدافها ، والنار المخبوءة في أحجارها ، فإن أظهرته من أكانه وأصدافه تبين حسنه ، وإن قدحت النار من مكانها وأحجارها انتفعت بها ، وإلا

(١) لعل أصل الجملة : « فاذا هي أشبه بالسودانية استعجاما عليه » وبذلك يتضح معناه .
(٢) في هذه الكلمة وما بعدها غموض ولا موجب لنصب « مشبعا » . والأستاذ مرسيه يقترح كلمة « متائلة » وكلمة « مشعب » .

(٣) في الأصل : « الأسبق » وهو تحريف . انظر العمدة ص ١٦٣ ج ١ وفي نهاية الأرب : « وقالوا : لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه الى قلبك أسبق من لفظه الى سمعك » ص ٨ ج ٧
(٤) لعله : « مكانها » .

بقيت محجوبة مستورة ، وإنما يستثار الكامن منها ، ويستخرج المستسر من جواهرها ، بقدر حذق المستنيط ، وصواب حركات المستخرج ، وقصد إشارته ، ولطف مذهبها . وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضع عن المعنى ولا يصيب إشارته ، وكلاهما كان الكلام أفصح ، والبيان أوضح ، كان أدل على حسن وجه المعنى .
ر^(٢) [وقد شبهوا المعنى] الخفي بالروح الخفي ، واللفظ الظاهر بالثمان الظاهر . وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متسقاً .

(٢٨)

« والدال على المعنى أربعة أصناف : لفظ ، وإشارة ، وعقد ، وخط .

وذكر ارسطاطاليس خامساً وهي التي تسمى النصبة ، وهي الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة الناطقة بغير لفظ والمشيرة إليه بغير يد ، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وهي داخلة في جملة هذه المعاني الأربعة وخارجة منها بالحلية .

ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبها ، وحلية غير مشاكلة لحلية أختها ، غير أنها في الجملة كاشفة عن أعيان المعاني . وأوضح هذه الدلائل صنفان : وهما اللسان والقلم ، وكلاهما يترجمان ويدلان على القلب ، ويستميلان منه ، ويؤديان عنه ما لا تؤدي هذه الأصناف الباقية .

وأما اللسان فهي الآلة التي يخرج الانسان بها من حد الاستبهام الى حد الإنسانية ، ولذلك قال صاحب المنطق : حد الانسان الحى الناطق [وقال علي بن

(١) في الأصل : « وربما » .

(٢) زدنا كلمة « وقد شبهوا المعنى » ليتسق الكلام ، ونظنها سقطت من النسخ .

(٣) أنت الضمير مراعاة للغير . وفي العقد « فهو »

(١) عبيدة : [وإنما يبين عن الإنسان اللسان ، وعن المودّة العينان .] وقال هشام بن عبد الملك : [والله سبحانه رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده ، وما جعل الله من عبر عن شيء مثل من لم يعبر عنه .

وقال آخر : الرجل مخبوء تحت لسانه . وقالوا : المرء بأصغريه قلبه ولسانه .
وقال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغران لسانه * ومعقوله والجسم خلق مصوّر
(١)
[فإن ترها راقتك يوماً فربما * أمر بمذاق العود والعود أخضر]

الأعور التيمي :

(٢)
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وقال آخر :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
الطائي :

ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من خدام الفؤاد

(٢٩)

ولنخط صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف ، لأنه ينوب عنها في الإيضاح عند المشهد ، ويفضلها في المغيب [ولأن الكتب تقرأ في الأماكن المتباينة ، والبلدان المتفرقة ، وتدرس في كل عصر وزمان ، وبكل لسان ، واللسان وإن كان زلقاً فصيحاً لا يعدو سامعه ، ولا يجاوزه إلى غيره]^(٣) .

(١) زيادة عن العقد .

(٢) هذا البيت نسب إلى زهير .

(٣) زيادة عن العقد .

X وكفى بفضيلة القلم والخط قول الله عز وجل : ^(١) ﴿الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم﴾ وأقسم به كما أقسم بغيره ، ثم أقسم بما يكتبه القلم إفصاحا عن حاله ، وإعظاما لشأنه ، وتنبها لذكوره ، فقال : ^(٢) ﴿وما يسطرون﴾ .

ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ، ورسول الضمير ، ودليل الإرادة ، والناطق ^(٣) عن الخواطر ، وسفير العقول ، ووحى الفكر ، وسلاح المعرفة ، ومحادثه الأخلاء على التناهي ، وأنس الإخوان عند الفرقة ، ومستودع الأسرار ، وديوان الأمور ، وترجمان القلوب ، والمعبر عن النفوس ، والمخبر عن الخواطر ، ومورث الآخرمكارم الأقول ، والناقل اليه ما أثر الماضي ، والمخالد له حكمته وعلمه ، والمسامر للعين بسر القلب ، والمخاطب عن الناصت ، والمجادل عن الساكت ، والمفصح عن الأبكم ، والمتكلم عن الأخرس ، الذي تشهد له آثاره بفضائله ، وأخباره بمناقبه X

(٣٠)

→ وقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر وباذخ العزكأبي مسلم صاحب الدولة ^(٤) فزقت شملته ، وبددت جمعه ، ونقضت برمه ، وأفسدت صلاحه ، وضعضعت بنيانه ، مع ذكائه وتفطنه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه وشدّة شكيمة ، وامتناعه على أبي جعفر ونفاره عنه ، كيف استفزه ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس وجبل ابن يزيد واستمالوه بسحر ألفاظهم ، وبلاغة أقلامهم ، حتى نزل من باذخ عزه ،

(١) في الأصل : « العلم » وهو تحريف .

(٢) أكثر ما جاء في هذا الموضوع متنبس من كلام الجاحظ . راجع البيان والتبيين ج ١

ص ٦٨ - ٧١

(٣) في نهاية الأرب ج ٧ ص ١٣ « بهجة الضمير » وما هنا أدق .

(٤) عل الصواب : « وضعت » لتقابل « رفع » فيما بعد .

(٥) لعله « القلم » .

(٦) لعل الصواب : « على » .

وجاء مبادراً حتى وقع في الشَّرَك المنصوب له ، فتفرق جمعه ، وانطفأ نوره ، وصار
خبراً سائراً ، ورسماً دائراً^(١) .

ورفع القلم خاشعَ الطرف ، صغيرَ الخطر ، لئيم الجنس ، درَج من عَشِّ
التجار ، ونشأ بين المكيال والميزان ، كيف أشالت البلاغة بضبيعه ، ورفعت من
ناظريه ، حتى شافهت به عنان السماء ، ورفعت بناءه فوق البناء ، حتى طلبه الراكب ،
وقصده الطالب ، وخشعت له الرجال ، ولحظته العيون بالوقار ، وتمكن من
الصنائع ، ومُدَّت نحوه الأصابع ، فَشِكْرَتْ منه اللفظة ، ورُجِيَتْ منه اللحظة ، كمحمد
ابن عبد الملك بن الزيات ، وفيه يقول علي بن الجهم :

أحسن من عشرين بيتاً سُدَى * جمعك معناه^(٢) في بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة * تغسل عنه وضر الزيت

فأجابه محمد بن عبد الملك :

رَقِيَتْ في القول إلى خِطَّة * قدركَ فيها قد تعدت
قِيَرْتِمْ الملك فلم تُنْقِه * حتى غسلنا القار بالزيت

ومدحه حبيب بن أوس يمدحه ويصف قلبه :

لك القلم الأعلى الذي بَشَبَاتِه^(٣) * تصاب من الأمر الكلي والمفاصل

وكان محمد من ألطف الناس ذهنًا ، وأرقهم طبعًا ، وأصدقهم حسًا ، وأرشقهم
قلماً ، وأملحهم إشارة ، اذا قال أصاب ، واذا كتب أبلغ ، واذا شعر أحسن ، واذا
اختصر أغنى عن الاطالة : أمره الواصل أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويعلمه

(١) في الأصل : « واثرا » وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « معناه » وهو تحريف .

(٣) يظهر أنه سقطت كلمة « فقال » .

(٤) في الأصل : « بَشَبَاتِه » وهو تحريف . وفي العقد « بسنانه » .

انه صرفه عن أمر الجزائر والعوام ، وفوض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم ؛
فكتب : أما بعد ، فان أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر
والعوام فيجعله في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .^(١)

سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصراني الكاتب فقال :

بأبي وأمي ضاعت الأحلام ؟ * أم ضاعت الأذهان والأفهام ؟

من صدّ عن دين النبي محمد * أله بأمر المسلمين قيام ؟

إلا تكن أسيافهم مشهورة * فينا فتلك سيوفهم أقلام

(٣١)

قال عبد الرحمن بن كيسان : استعمال القلم أجدر بإحضار الذهن عند^(٢)

تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام .

ولم يُختلف في شرف القلم وإنما اختلف في كيفية البلاغة وماهيتها . وقد مدحها

كل قوم بأوضح عبارتهم وأحسن بيانهم ، فقال صاحب اليونانيين : البلاغة تصحيح

الأقسام واختيار الكلام .

الرومي : البلاغة وضوح الدلالة واتمهاز الفرصة وحسن الإشارة^(٣) .

الفارسي : هي معرفة الفصل من الوصل .

(١) نظير هذا ما قاله الرشيد ليحيى بن خالد : يا أبت إنى أردت أن أجعل الخاتم الذى في يد الفضل

الى جعفر . وقد احتشمت منه فاكفنيه . فكتب اليه يحيى : قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن

يجول الخاتم من يمينك الى شمالك (ص ٦٨ ج ٢ زهر الآداب) .

(٢) فى الأصل : «الكلام» وهو تحريف . ورواية الجاحظ : «استعمال القلم أجدر أن يحض

الذهن على تصحيح الكتاب ، الخ» ح ١ ص ٧١

(٣) الذى فى البيان والتبيين أن هذا جواب الهندى راجع البيان صفحة ٧٥ ، ٧٦ ج ١ فان

ابن المدبر اختصر هنا ما بسطه الجاحظ هناك . وانظر زهر الآداب ج ١ ص ١٠٥

* الهندي : هي البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم أن يدع الإفصاح بها^(١)
إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقا ، وربما كان الاطراق عنها^(٢) أبلغ
في الدرك وأحق بالظفر .

غيره : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة^(٣)
الحذق بما التبس من المعاني وغمض ، وبما شرد عليك من اللفظ وتعدّر. ثم قال :
وزين ذلك كله وبهائه وحلاوته أن تكون الشئائل معتدلة ، والألفاظ موزونة ،
واللهجة نقية ، فان جامع ذلك السنّ والسمت والجملّ وطول الصمت فقد تم^(٤)
كل التمام .^(٥)

وقيل لهندي : ما البلاغة ؟ فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها : أول البلاغة احتمال^(٦)
آلة البلاغة ، وذلك أن يكون البليغ رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللفظ ،
متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوق ، ويكون
في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح
الألفاظ كل التنقيح ، ويصفّيها كل التصفية ، ويهدبها غاية التهذيب ، ولا يكون^(٧)

(١) عبارة الجاحظ : « ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية
عنها ، الخ » .

(٢) عبارة الجاحظ : الاضراب عنها صفحا .

(٣) يظهر أن كلمة « قلة » من زيادة النسخ وفي البيان : « قلة الحرف » وهي أدخل في الغموض .

(٤) يظهر أنه سقطت كلمة « وسناؤه » وبها تم السجعة ، وهي مثبتة في البيان .

(٥) زاد الجاحظ : « وكل كل الكمال » .

(٦) في البيان وزهر الآداب : « اجتماع » وهي المناسبة للقيام هنا .

(٧) الجأش : رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع (قاموس) .

(٨) في الأصل : « بصعبها كل التصعبة » وهو تحريف . والتصحيح عن البيان وزهر الآداب .

كذلك حتى يصادف فيلسوفاً حكيماً عالياً ومن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط
مشاركات الألفاظ^(٥) .

أنو شروان لبز جمهر : متى يكون العبيّ بليغاً؟ فقال : اذا وصف بليغاً .

أرسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة .

بشربن خالد : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام ،

والدلالة بالتقليل على الكثير .

خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها

إصابة المعنى ، والقرع بالحجة^(٧) .

عمر بن عبد العزيز : البليغ من اذا وجد كثيراً ملاءه ، واذا وجد قليلاً كفاه .

ابن عتبة : البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الحجّة ، والاستغناء بالتقليل عن الكثير .

بعضهم^(٨) : إني لأكره للانسان أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار عقله^(٩) ،

كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلاً عن مقدار لسانه وعلمه^(١٠) .

(١) في البيان وزهر الآداب : « ولا يفعل ذلك » .

(٢) عبارة الجاحظ والحصرى : « حتى يصادف حكيماً ، أو فيلسوفاً عالياً » .

(٣) هكذا في الأصل ، وفي زهر الآداب : « قد تعود » وهو أصح .

(٤) في البيان وفي الأصل : « فضل » وقد آثرنا عبارة زهر الآداب .

(٥) في الأصل : « أسقط مشترك اللفظ » . (راجع زهر الآداب ج ١ ص ٩٥ والبيان ج ١

ص ٧٩) . (٦) في العقد « جعفر » .

(٧) عبارة البيهقي : « والقصد للحجة » انظر المحاسن والمساوي ص ٢٧٤ وهي كذلك في العقد .

(٨) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٤) .

(٩) كلمة « للانسان » غير موجودة في رواية الجاحظ لأن محمد بن علي قال هذه العبارة في بلاغة

بعض أهله . (١٠) رواية الجاحظ « علمه » .

(١١) رواية الجاحظ : « كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله » وهي أدق .

يكنفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى
الناطق من سوء فهم السامع .^(١)

عمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ فقال : ما بلغك الجنة ، وعدل بك عن النار ،
وما بصرك بمواقع رشدك ، وعواقب غيِّك . فقال السائل : ليس هذا أريد . فقال :
من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن
القول ؛ قال : ليس هذا أريد . [قال] قال النبي عليه الصلاة والسلام : "إنا معاشر
الأنبياء بكاءون"^(٢) وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله . فقال له السائل :
ليس هذا أريد . قال : كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصمت ، فقال :
ليس هذا أريد . فقال : فكأنك إنما تريد تحيّر اللفظ في حسن إفهام [قال : نعم ،
قال : [إنك [إن] أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة عن
المستمعين ، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة في الآذان ،

-
- (١) لم يذكر المؤلف صاحب هذه الحكمة ، وقد وردت في الأصل متصلة بما قبلها ، وذلك خطأ ،
وهي من كلام الامام ابراهيم بن محمد (أنظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٥
(٢) في زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ طبع المطبعة الرحمانية ونهاية الأرب للنويرى (ج ٧ ص ٧ طبع
دار الكتب المصرية) : قيل لعمرو بن عبيد الخ وهو أنسب .
(٣) هو حفص بن سالم كما في زهر الآداب ج ١ ص ٩٤
(٤) في الأصل «يسمع» وهو تحريف بدليل قوله : «ومن لم يحسن الاستماع» وهي مثبته في زهر
الآداب «يستمع» وكذلك في البيان والتبيين .
(٥) الزيادة عن زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ ونهاية الأرب ج ٧ ص ٧ للربط .
(٦) من البكاء وهو قلة الكلام . وفي نهاية الأرب والبيان والتبيين : «بكاء» ومفردتها بكى .
(٧) رواية الجاحظ : « كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ما لا يخافون من فتنة
السكوت ومن سقطات الصمت» وهي أوفى وأدق . (أنظر ص ٩٠ ح ١) .
(٨) رواية الجاحظ «تحيير اللفظ» .
(٩) الزيادة عن نهاية الأرب وزهر الآداب .

المقبولة عند الأذهان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم ،
بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت
من الله سبحانه جزيل الثواب .

الخليل بن أحمد : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فان استطعت أن
يكون لفظك لمعناك طبقا ، ولتلك الحال وفقا ، وأحر كلامك لأقوله مشابها ، وموارده
لمصادره موازنا ، فافعل .^(١) واحرص أن تكون لكلامك متهما وإن ظرف ، ولنظامك
مستريبا وإن لطف ، بمواتاة آلتك لك ، وتصرف إرادتك معك ، فافعل إن شاء الله .



وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معان لم تفتزعها بلاغة الناطقين ، ولا لمستها أكف
المفوهين ، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ، ولا سبق الى ألفاظها أذهان الناطقين ؛
فاجعلها مثالا بين عينيك ، ومصورة بين يديك ، ومسامرة لك في ليلك ونهارك ،
تهطل عليك شآبيب منافعها ، ويطلق منها بركاتها ، وتوردك مناهل بلاغاتها ، وتدل
على مهيع رشدتها ، وتصدرك وقد تقع ظمؤك بينابيع بحر إحسانها ، إن شاء الله
عز وجل .

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

- (١) الخبر غير مطابق ، وربما كان الأصوب : « ومورده لمصدره موازنا » .
(٢) في العقد : « وقيل للخليل بن أحمد : ما البلاغة ؟ فقال : ما قرب طرفاه ، وبعد منتهاه » .

فهرس الموضوعات

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٢٦	التاريخ	٤	كلمة شارح الرسالة
٢٧	إسحاء الكتب وختمها	٥	مقدمة المؤلف
٢٧	إصاق القراطيس	٦	ضمير الكاتب وحرصه على الحكمة
٢٨	قراءة الكتب المختومة	٧	ثقافته ، وما يجب عليه تحصيله
٢٨	تضمين الأسرار	٧	تضمين الشعر والأمثال
٢٩	تخير الألفاظ	٨	صفات الكاتب
٣٠	أوقات الكتابة	٩	أزياء الكتاب
٣٠	طبيعة الكاتب	١٠	طبقات الكلام
٣١	آراء مختلفة في الكتابة	١١	أقدار الخطاطين
٣٢	المعاني والألفاظ	١٢	تخير الألفاظ والتعابير
٣٣	بين أبي العنابية وابن مناذر	١٣	عبارة « جعلت فداك »
٣٤	عرض الكتابة على العلماء	١٤	عبارة « أبقاك الله وأمتع بك »
٣٥	عود الى أقدار الخطاطين	١٥	صدور كتب السلف
٣٥	آراء مختلفة في قيمة الكلام	١٥	بعض التعابير والكلمات المتقدمة
٣٦	تدبر معاني الكلام قبل الانشاء	١٧	تفقد الألفاظ والمعاني
٣٧	الزفة والجزالة	١٨	هل تجوز محاكاة القرآن في الحذف والايصال
٣٨	تنطع الكتاب	١٩	ما يجوز في الشعر دون الرسائل
٣٩	المعاني والألفاظ	٢٢	صدور الرسائل وخواتمها
٤٠	الدال على المعنى	٢٢	إصلاح الدواة
٤١	بقاء الكتابة على الزمان	٢٣	الأقلام والقراطيس
٤٢	فضيلة الخط والقلم	٢٤	السكين
٤٢	فضل البلاغة	٢٥	الخط والنقط والشكل
٤٣	محمد بن عبد الملك بن الزيات	٢٥	الصلاة على النبي
٤٤	ماهية البلاغة	٢٦	إتراب الكتب
٤٨	ختام الرسالة		

فهرس الأعلام

ابن عبد ربه (صاحب العقد) ١٤٦٩
 ابن عبد كان ١٣
 ابن عبد الحكم ١٦
 ابن المدير ١٣٦١٨٦٤٤
 ابن المقفع ٢٢٦٣٢٦٤٢
 ابن ماذر ٣٢٦٣٢٦٣٣
 ابن هاني ٢٥

حرف الباء

البي ٩
 بديع الزمان ٧
 بزرجمهر ٦٦
 بشر بن خالد ٦٦
 البيهقي ٦٦

حرف التاء

التعالبي ٩
 ثعلب ١٣

حرف الجيم

الجاحظ ٥٦٩٦٣٥٦٣٨٦٣٩٦٤٢٦٤٤
 ٤٧٦٤٦٦٤٤
 جبل بن يزيد ٤٢
 جعفر بن عبد الواحد ٣٨
 جعفر بن محمد ١٧
 الجوهرى ٢٨

حرف الألف

ابراهيم بن محمد ٤٧
 ابراهيم المزني ١٧
 أبو العيس ١٣
 أبو تمام ٤١٦٤٢٦٤١
 أبو جعفر المنصور ٢٢
 أبو ذؤيب ٢٢٤٦٤٢٢
 أبو العتاهية ٣٢٦٣٢٦٣٣
 أبو العيناء ١٣٢٥٦٤١٣
 أبو مسلم الخراساني ٤٢
 أبو نوح النصراني ٤٤
 أحمد بن طولون ١٣
 أحمد بن يوسف ٣٩
 الأحوص ١٥
 أرسططاليس ٤٠٤٦٤٤٠
 اسحاق بن ابراهيم ٤٤
 الأصمعي ١٢٢٢٦٤١٢
 الأعور التميمي ٤١
 أنوشروان ٤٦
 (ابن ...)
 ابن أبي كريمة ٣٧
 ابن الأعرابي ١٣
 ابن بسام ٩
 ابن درستويه ٢٣٢٤٦٤٢٣

حرف الحاء

- الحباب بن المنذر ٢٠
 حبيب بن أوس ٣٨، ٣٤، ٣٢ (أنظر أبو تمام)
 حسان بن ثابت ٣٧
 الحسن بن سهل ٣٧
 الحسن بن هاني ٣٧، ٢١
 الحسن بن وهب ٣٩
 الحصري ٤٦
 الخطيئة ١٩
 جدون ١٣

حرف الخاء

- خالد بن صفوان ٤٦، ٣٥
 الخفاجي ٢٨
 الخليل بن أحمد ٤٨

حرف الدال

- داود بن خلف ١٧
 دوزي ٢٩

حرف الراء

- الرشيد ٤٤، ٣٣، ٢٢
 ربيعة بن العجاج ٣٨

حرف الزاي

- الزبير ١٣
 زهير ٢٢، ٦٧

حرف السين

- سهل بن أبي وقاص ١٦، ١٢
 سعيد بن حميد ٢٥، ١٨

سليمان بن وهب ١٩

سهل بن بركة ٤٤

حرف الشين

الشعبي ٣٢

حرف الصاد

- الصاحب بن عباد ٩
 صالح بن عبد القدوس ٤٢
 الصولي ٢٦، ٢٤، ١٤، ١٣، ١٢

حرف الطاء

- الطرماح ٣٨
 عبد الحميد بن يحيى ١٣
 عبد الرحمن بن حزم ٩
 عبد الرحمن بن كيسان ٤٤
 عبد الله بن طاهر ٤٣، ٢٣، ١٤
 عبد الله بن عبد الملك ١٦
 عبيد الله بن قيس الرقيات ٣٢
 العتابي ٣٦، ٣١
 العتي ٣٢
 عثمان بن عفان ١٩
 العربي ٢٦
 عريب ١٨، ١٣
 العلاء بن الحضرمي ١٥
 علي بن أبي طالب ٢٤، ١٦، ١٢
 علي بن الجهم ٤٣
 علي بن زبير ٢٥
 علي بن عبيدة ٤٠
 عمر بن الخطاب ١٢

نخلد الموصلى ٣٨	عمر بن عبد العزيز ٤٦
مرسبه ٣٩	عمر بن بلأ ٣٣
امرؤ القيس ٢٣	عمرو بن عبید ٤٧
المقدسى ٩	عمرو بن معد يكرب ٢٤
موسى بن الطائفى ٩	عيسى بن طبعه ٣٧
حرف النون	حرف القاء
النابغة ١٩	الفيروزابادى ٥
النحاس ١٣	حرف القاف
حرف الواو	القلقشندى ١٣٦٩
الواثق ٤٣	حرف اللام
حرف الهاء	لبيد ٢٠
هشام بن عبد الملك ٤١	حرف الميم
حرف الياء	المأمون ١٣
ياقوت ١٧٦٩ ١٨٦	المبرد ١٣
يحيى بن خالد ٤٤	محمد بن عبد الملك بن الزيات ١٤ و ٤٣
يحيى بن عيسى ١٣	محمد بن على ٤٦
يحيى بن المبارك ١٣	محمد بن عيسى ٢٣
يزيد بن عبد الله ٣٦	محمد بن مناذر ٣٣
	محمود الوراق ١٢

du Prophète. Je n'affirme pas qu'ils rimaient régulièrement, quel que fût le sujet de leurs discours, mais je suppose qu'ils devaient, suivant en cela l'exemple du Coran employer la rime quand ils traitaient un thème pathétique et cherchaient à toucher les coeurs.

Je n'ignore pas d'ailleurs, qu'il existait alors une école hostile à la prose rimée pour le motif que les Kahen l'avaient adoptée ; mais c'est précisément parce que cette prévention existait qu'Al-gahiz a défendu avec chaleur cette manière d'écrire en rappelant que le Coran rime souvent et que le Prophète lui même rimait.

Il me faut noter ici qu'Al Gahiz rimait également⁽¹⁾ mais sans s'y astreindre régulièrement; enfin, Je dois répéter qu'on peut trouver de la prose rimée chez beaucoup d'écrivains des trois premiers siècles. On admet même que la mode en était répandue chez les Bédouins : الأعراب

Aujourd'hui, on ne la rencontre plus que rarement ; il y a là une réaction naturelle contre l'abus qu'on en a fait après le IV^e siècle, et les écrivains modernes considèrent le procédé comme parfaitement banal. On peut la trouver cependant chez les auteurs qui désirent exprimer quelque chose de sentimental ou donner à leur langue un tour artistique.

Ahmad Chawki احمد شوقي et Hafiz Ibrahim حافظ ابراهيم par exemple, riment souvent même en prose. Mais ce sont des poètes qui se plaisent à orner leurs phrases avec la sonorité de la rime.

Zaki Mubarak

Paris le 11 Septembre 1930

(1) Lettres. p. 5.

Abou Hilal El-'Askari أبو هلال العسكري nous apprend que le Prophète rimait lui-même, mais qu'il évitait cependant de le faire lorsqu'il estimait que la rime risquait de fausser le sens de la phrase (1).

Il nous dit, autre part, que la prose rimées est d'autant plus estimée qu'elle reste agréable et naturelle. (2)

Ibn Khafaga ابن خفاجة dans son remarquable ouvrage intitulé : Serr El-Façaha, سر الفصاحة dont le manuscrit se trouve à la Bibliothèque Egyptienne a étudié cette question de la manière la plus profonde. D'après lui, la plupart des écrivains avaient adopté la mode d'Al-Sag'; seulement les une rimaient régulièrement tandis que les autres ne le faisaient qu'occasionnellement et suivant les circonstances. (3)

Les rimes recommandables sont, à son avis, celles qui viennent compléter le sens, l'étayer et le renforcer.

Sont mauvaises, au contraire, celles que l'écrivain accumule automatiquement, sans autre souci que de donner de la sonorité à sa prose et sans s'inquiéter du sens.

Al-gahiz cite de temps en temps des exemples de prose rimée ; il semble considérer ce mode d'écriture comme un art précieux. et même il a défendu la rime dans la prose d'un point de vue théorique. D'après lui, aux premier et deuxième siècle les Kossas القصاص rimaient dans leurs Kaças قصص (4); on connaît ces lettrés fameux qui s'en allaient dans les mosquées pour y donner des conférences publiques, et sur tous les sujets. Leur culture était tellement vaste, en effet, qu'ils pouvaient parler sur l'histoire générale, la littérature, la jurisprudence et aussi commenter le Coran aussi bien que les traditions

(1) Al-Sina'ataïn الصناعتين p. 201.

(2) Ibid p. 109.

(3) p. 184 à 190.

(4) Al Bayan. p. 192-196. vol. 2 (ed 1929).

J'insiste sur cette question, parce que là-dessus je ne saurais partager l'opinion de Mr. Marçais non plus que celle de Mr. Taha Hossein طه حسين. Ces deux éminents professeurs de la littérature arabe affirment que la mode de la prose rimée ne s'est vraiment développée qu'à partir du IV^e siècle de l'hégire.—Ma thèse est au contraire, que cette mode est excessivement ancienne. Le Coran, qu'on peut considérer littérairement comme le plus ancien et le plus authentique ouvrage de l'époque de la prophétie et qui touche encore à l'ère antéislamique, rime souvent. Les discours des Kahen الكهان, des prêtres de cette période antéislamique étaient rimés, on en convient.

J'affirme que l'habitude s'en est continuée après le Coran ; j'en suis sûr, d'abord parce que c'est naturel et aussi parce que nous en pouvons contrôler les traces.

Mr. Marçais est d'avis qu'elle a passé de mode au temps des Banou-Omayya, il me disait même un jour en Septembre 1929 ; qu'Ibn-El-Mokaffa 'أبن المقفع', ignorait ce qu'est un Sag 'سجع'. Je crois au contraire, qu'il le savait très bien, puisqu'il a dit lui-même, qu'on peut trouver de l'éloquence dans une rime⁽¹⁾ d'ailleurs en fait, il rimait quelquefois⁽²⁾. Bachar Ibn Bord 'بشار بن برد', était également connu pour rimeur⁽³⁾.

Ibn El Athir 'ابن الأثير' nous dit que le Coran a deux manières de balancer les périodes : la première est le sag 'السجع' ; la seconde la *moizana* 'الموازنة'⁽⁴⁾. Or nous savons très bien que le balancement des phrases par la *moizana* produit sur la construction générale de la période le même effet que la rime.

(1) Cf. Al-Bayan p. 91. vol. I.

(2) Adab El-Kuttâb. p. 68.

(3) Zahr El-Adâb. p. 121. vol. 2.

(4) Al Mathal El Saer 'المثل السائر' p. 170

Au début de la présente introduction nous avons constaté que les preuves formelles manquent pour attribuer de façon suivie la Lettre vierge à Ibn El Modabber. Quelques mots d'Al Soli, الصولى seulement établissent qu'il s'était occupé de l'art d'écrire.

Nous allons donc arriver à cette conclusion c'est que deux noms peuvent également être mis en avant comme ceux de l'auteur de ce morceau : Ibn El Modabber et Al Chaïbani. Chacun d'eux s'appelait aussi Ibrahim Ibn Mohammed; et ainsi s'est produite la confusion, sans doute.

Quant à la lettre Vierge, en elle-même, son intérêt n'en est pas diminué par cette imprécision; il est dommage seulement qu'elle ressemble, trop par là à ce poème arabe dont soixante dix poètes, sans plus, prétendaient être l'auteur.

XIII

Il nous reste à jeter un coup d'œil sur ce qu'Al-Gahiz a écrit à ce sujet.

Nous remarquerons d'abord que le style d'Ibn El-Mudabber ressemble beaucoup à celui d'Al-gahiz. On trouve même dans la Lettre Vierge certains paragraphes qui sont empruntés à l'œuvre d'Al-gahiz en particulier ceux dans lesquels il définit l'éloquence.⁽¹⁾ Ces emprunts s'expliquent d'eux-mêmes; d'abord parce que l'œuvre d'Al-gahiz était accessible à tous, et ensuite parce que ce dernier étant l'ami intime d'Ibn El-Mudabber, celui-ci devait être tenté de le suivre ou plutôt de l'imiter.

L'œuvre d'Al-gahiz est longue et de pensée profonde; elle mérite une étude particulière. Nous allons donc nous borner ici à examiner son avis sur une question qu'ont omise aussi bien Ibn Durustuyah, que Al-Sôli ou Ibn El-Mudabber: celle de la rime en prose: السجع

(1) Cf. Al-Bayan البيان والتبيين p. 90-91 — vol. I.

les questions qui concernent les droits religieux et particulièrement les héritages. (1)

Voilà qui nous intéresse pour l'organisation administrative du monde arabe, à cette époque, l'auteur d'Al-'Ikd n'a rien dit du costume qui distinguait ces spécialistes entre eux, mais nous savons par ailleurs, que leur tenue n'était pas uniforme; et notamment, d'après Al-Gahiz الجاحظ que les commis aux armées portaient des vêtements spéciaux et n'avaient droit pour montures qu'à des ânes, même quand les mulets étaient nombreux.(2)

XII

Il nous reste à faire ressortir un fait important : Ibn 'Abd Rabbih s'est beaucoup servi de la Lettre Vierge, الرسالة العذراء, mais sans la citer expressément. L'auteur des extraits ne serait pas Ibrahim Ibn Mohammad Ibn El Mudabber, ابراهيم بن محمد بن المدبر, mais bien Ibrahim Ibn Mohammad Al Chaïbani. ابراهيم بن محمد الشيباني (3)

Les extraits d'Ibn 'Abd Rabbih sont parfois un peu plus détaillés. Qui était donc cet Ibrahim Al Chaïbani ?

J'ai cherché l'an dernier, à retrouver sa biographie, je n'y suis pas parvenu. Je suppose cependant qu'il a dû vivre dans la dernière partie du III^e siècle. Car il se réfère souvent à Al Gahiz, الجاحظ comme nous l'avons indiqué dans la notice qui accompagne le texte arabe.

(1) Ibid vol 3 page 14 et 15. voir également Sobh el A'cha صبح الأعشى p.142 vol I Certains auteurs donnent au mot Kateb ce sens d'employé de bureau. D'autres au contraire, comme l'auteur de تدبير الممالك ، في تدبير الممالك l'emploient avec le sens qu'on donnait en France au mot : commis, au XVII^e siècle. Colbert était un *commis* aux finances, comme Louvois à la guerre.

(2) Al Bayan vol. 3 page 60

(3) cf les 11-12-19

constamment chez les auteurs d'alors le conseil de vivre en bons termes avec ces personnages puissants.

Mais il y avait autre chose aussi. Les écrivains étaient alors réputés comme libres-penseurs et libertins. Les hérésies audacieuses, c'est dans leurs divans qu'elles prenaient naissance : les poèmes licencieux, les lettres légères et charmantes qui chantent l'amour et la beauté dans toutes leurs manifestations, c'est encore de là qu'ils sortaient; en un mot, toutes les attaques contre l'Islam, toutes les atteintes à sa tradition s'élaboraient dans ces bureaux.

Ibn 'Abd Rabbih nous a renseigné sur les conditions dans lesquelles fut changée l'habitude d'employer la langue grecque pour les calculs; il nous apprend que c'est Solaïman Ibn Sa'd سلیمان بن سعد qui proposa à 'Abd El-Malek ibn Marwan عبد الملك بن مروان l'abandon du grec pour adopter l'arabe⁽¹⁾, et que Kahzam قحزم réalisa une réforme analogue en substituant également l'arabe au persan.⁽²⁾

Les détails qu'il nous donne sur les diverses catégories de scribes sont bien curieux aussi. On trouvait des écrivains pour la correspondance; des commis chargés des impôts, d'autres affectés à l'armée; certains s'occupaient de la police et autres des tribunaux. Chacune de ces spécialités réclamait une culture particulière; les écrivains de lettres, par exemple, devaient connaître à fond les subtilités de la langue, afin de pouvoir correspondre aussi bien avec un souverain qu'avec les particuliers. Les commis aux impôts ne devaient pas ignorer le calcul, l'agriculture, non plus que la valeur d'estimation du bétail ou des bijoux; ceux de l'armée étaient des calculateurs; ceux de la police connaissaient la juridiction criminelle, tandis que ceux des tribunaux devaient être experts sur toutes

(1) Ikd vol 3 page 10

(2) Ibid " " " 11

Quand il cite Isma'ïl Ibn Ibrahim اسماعيل بن ابراهيم comme l'inventeur de l'écriture, il répète évidemment un on-dit et ne se préoccupe guère d'apporter des preuves de même lorsqu'il affirme qu'au temps où naquit l'Islam, on ne trouvait pas plus d'une quinzaine de personnes qui sussent écrire. Il les énumère et donne leurs noms, mais comme tous appartenaient au milieu Koraichite, l'argument est médiocre pour la société arabe, en général.

On ne saurait douter, en effet, que la majorité des Arabes fût, alors, illétrée; mais ne faut-il pas se souvenir également que les historiens musulmans ont toujours eu à cœur de dénigrer l'époque antéislamique afin de donner à l'Islam le caractère d'une transformation plus rayonnante et de montrer vraiment la croyance nouvelle comme la lumière, qui dissipe les ténèbres? Certes, l'Arabie doit sa gloire à l'Islam, mais nous ne devons pas oublier que l'ère antéislamique en avait été la préparation et qu'elle avait même présenté les caractères d'une véritable Renaissance.

Il semblerait à bien entendre Ibn 'Abd Rabbih que le métier de secrétaire eût été alors assez sujet à cautions et que ceux qui le faisaient manquaient parfois de moralité.

Il s'étonne par exemple qu'Al-Hasan El-Basri الحسن البصري ait occupé un pareil poste malgré sa naissance noble, ses scrupules et son désintéressement;⁽¹⁾ pour Al-Ch'abi الشعبي, il fait la même remarque!⁽²⁾

L'observation devait être juste; comment en être surpris d'ailleurs? Le métier abondait en tentations périlleuses; c'étaient les commis, en effet, les écrivains, qui répartissaient l'impôt et par là tenaient le peuple à leur merci; car il n'existait pas alors chez les Arabes de règle générale et fixe pour les impositions; tout était laissé au bon plaisir des secrétaires d'Etat. Aussi rencontre-t-on

(1) Al-Ikd El-Farid العقدة الفريد vol. 3, p. 9.

(2) Ibid - - 3, p. 10.

XI

Ahmad Ibn 'Abd Rabbih أحمد بن عبد ربه a fourni dans son ouvrage: Al-'Ikd El-Farid العقد الفريد des indications fort intéressantes sur l'art d'écrire et les différentes manières qu'on remarque chez les écrivains. Les renseignements qu'il nous donne représentent assez exactement les connaissances générales qu'on avait de son temps sur la matière, après avoir nommé celui qu'il considère comme l'inventeur de l'écriture et de l'alphabet, il énumère les diverses façons de commencer une lettre, de la cacheter, d'y inscrire la date et l'adresse. Il met en lumière la valeur et l'importance sociale du métier d'écrivain et cite un grand nombre de ceux parmi les meilleurs qui occupèrent le poste de secrétaires auprès des Califes Abou-Bakr أبو بكر, 'Omar عمر, 'Othman عثمان et 'Ali علي. Il y joint les noms de ceux qui ont rempli le même rôle chez d'autres person- nages importants, et termine en parlant de ceux auxquels leur métier a conféré une véritable puissance.

On trouve, également, dans son ouvrage des aperçus curieux sur les qualités nécessaires à l'écrivain, remarquons ici en passant que le mot kateb كاتب se traduirait plus exactement peut-être pour cette époque là, par scribe, ou encore, dans certains cas par: commis aux écritures. Ibn 'Abd Rabbih parle aussi de l'éloquence, mais s'intéresse de même à des détails matériels, au calame, ou à l'encre qu'il convient d'employer.

Il décrit les tawki التوقيعات, ces réponses brèves qui condensent beaucoup de sens en peu de mots; il donne enfin comme exemples-afin d'illustrer les observations,- de très nombreuses lettres fort intéressantes.

Les cinquante-cinq pages ainsi consacrées par Ibn 'Abd Rabbih à l'art d'écrire sont aujourd'hui pour nous des documents précieux; mais on aurait tort d'y chercher autre chose que l'œuvre d'un compilateur habile, et par exemple de l'originalité.

Il semble que les premiers Arabes écrivaient leurs lettres en un seul exemplaire : d'après Al-Sôli ce serait Ziyâd زياد qui le premier aurait fait plusieurs copies de ses lettres⁽¹⁾.

On ne connaissait pas encore le métier d'expert الخبير en écritures. Solaïman ibn-Wahb سليمان بن وهب serait le premier à avoir fait quelque chose d'approchant. Ayant examiné une certaine lettre il suppose qu'elle avait été écrite par un faussaire ; il dicta donc à la personne qu'on soupçonnait le même texte ; le scribe jura ne l'avoir jamais écrit auparavant. Bien entendu, en prenant la dictée, il avait eu soin de modifier sa manière d'écrire. Mais Solaïman Ibn - Wahb n'en reconnut pas moins qu'il était bien l'auteur de la première lettre examinée ; et comme on lui demandait comment il avait acquis cette certitude, il répondit que le faussaire, malgré sa volonté de masquer son écriture, n'avait pu s'empêcher de former certaines lettres comme il en avait l'habitude naturellement, et que cela avait suffi pour le trahir⁽²⁾.

Toutes les règles de l'art de bien écrire que nous venons d'analyser appartiennent, cela va sans dire, au seul style des lettres officielles, ou plutôt des lettres d'affaires. Quant aux missives privées, les Ikhwanîyat الإخوانيات comme on les appelle, il n'existe pas de règles pour elles. On parle avec un ami en toute liberté⁽³⁾.

Mais c'est assez prolonger cette comparaison entre les œuvres d'Ibn - Durustuyah et d'Al-Sôli et la Lettre Vierge d'Ibn El-Mudabber. Pour nous résumer, nous dirons que le livre du premier traite la question à un point de vue grammatical et philologique ; le second l'examine sous l'angle des connaissances générales nécessaires à l'écrivain ; la Lettre d'Ibn-Mudabber, enfin, étudie les subtilités d'ordre artistique ou social qui ont trait à la correspondance officielle.

(1) Ibid, p. 44.

(2) Adab El-Kuttâb, p. 44.

(3) Ibid, p. 236.

l'a discutée aussi et noté que c'est كعب بن لؤى qui l'a forgée⁽¹⁾ ! Il s'agit, en tous cas, d'une mode très ancienne et qui s'est prolongée jusqu'à nos jours; elle commence cependant à tomber en désuétude.

Ibn El-Mudabber, nous l'avons vu, a rappelé quelques principes au sujet de la date à inscrire sur les lettres.

Ibn Durustuyah a été plus explicite sur la question⁽²⁾ Al-Sôli l'a également traitée d'une manière détaillée⁽³⁾. D'après les renseignements fournis par eux, les Arabes n'indiquaient pas la date au moyen des chiffres, en ce temps-là, mais par une notation assez compliquée.

Al-Sôli nous indique aussi que les *lakab* الألقاب n'ont été ajoutés aux noms que plus tard; on sait que les *lakab* sont des qualificatifs que les califes joignaient à leur titre. Dans les discours prononcés en public: on priait pour le calife régnant, mais sans ajouter son *lakab*; c'est pour Mohamad El-Amin محمد الأمين le premier qu'on a joint au nom le *lakab*. Après lui, la tradition s'est établie⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استشهد

On a souvent insisté avec raison sur l'importance alors du métier de rédacteur; le *kateb* الكاتب, dit-on, possédait tout en réalité, puisque c'était lui qui calculait et répartissait les impôts, le *Kharag* الخراج. Les rhéteurs n'ont pas à s'occuper de ce point là, préoccupés qu'ils sont de formuler les règles pour l'art d'écrire; cependant Al-Sôli nous a laissé un excellent chapitre sur les avantages de ce métier, et il a évoqué avec des éloges le souvenir de ces Koraïchites قریش, cités dans la Bible comme des écrivains et des calculateurs de premier ordre⁽⁵⁾. Dans un autre chapitre, il a résumé les connaissances qu'on avait alors sur le calcul, et cité à ce sujet quelques anecdotes⁽⁶⁾.

(1) Adab El-Kuttâb, p. 36.

(2) Kitâb El-Kuttâb, pp. 77 - 81.

(3) Adab El-Kuttâb, pp. 178 - 185.

(4) Adab El-Kuttâb, p. 41.

(5) Ibid, p. 28.

(6) Ibid, p. 238.

Mais ceux qu'on appelle زنادقة chez les anciens Arabes, étaient, il faut le dire, des lettrés dont la culture était admirable; peut-être avaient-ils le droit et même le devoir d'enrichir leur langue? Qu'on laisse donc se développer, et librement évoluer un langage en notant simplement, si l'on y tient, quels sont les auteurs responsables de telle expression heureuse!

Les considérations d'Ibn El-Mudabber et d'Al-Sôli sur ce sujet ne peuvent nous apparaître que comme les premières étapes de la critique philologique. Nous n'avons pas besoin d'ajouter qu'aujourd'hui ces arguties scholastiques sont loin, et que les écrivains arabes de nos jours jouissent, à l'égard de leur langue, d'une pleine et entière liberté.

X

٢٧
Al-Sôli a traité la question du cachet: الخاتم

Les Arabes antéislamiques ne le connaissaient pas, nous dit-il. C'est le Prophète qui l'a introduit chez eux, du jour où il eût appris que les rois n'acceptent pas une lettre qui ne porte pas de cachet⁽¹⁾. Dans les premiers siècles de l'Islam, les ministres seuls pouvaient cacheter leurs lettres: leurs secrétaires n'avaient pas ce droit; lorsque l'un d'eux était amené par hasard à se servir du cachet, il devait par modestie signer sur le côté gauche de la lettre. De même au début il n'y avait pas de bureau particulier pour le sceau. C'est à Mo'awia معاوية qu'en est due la création⁽²⁾.

Avant lui, les rois conservaient leur cachet dans un coffre, et autorisaient au besoin leurs ministres à s'en servir.

Ibn Durustuyah a parlé de l'expression "أما بعد", mais pour en donner seulement des commentaires grammaticaux⁽³⁾. Al-Sôli

(1) Adab El-Kuttâb, p. 139.

(2) Ibid, p. 141.

(3) Kitâb El-Kuttâb, pp. 76-77.

manéchéens “ الزنادقة ”; il nous donne des renseignements très précieux à ce sujet, car il va chercher des arguments jusque chez les premiers califes et le Prophète lui-même.

Mais, le raisonnement m'apparaît un peu faible; évidemment les hommes de ce temps-là ne pouvaient rien considérer que sous l'angle de la religion. Dès l'instant qu'une expression avait été inventée par le Prophète ou l'un de ses proches, elle devenait intangible, sacrée. C'était de quoi paralyser notre langue et la priver de toute faculté d'évoluer.

Que l'on conserve les termes rituels de prières purement religieuses, rien de plus naturel; mais j'admets moins facilement qu'on doive s'en tenir obligatoirement aux termes qui ont pu avoir échappé au Prophète dans des entretiens familiers; il m'apparaît fort improbable, en effet, que le Prophète ait songé à donner à chacune de ses conversations quotidiennes le caractère sacré d'un enseignement religieux. Il est d'ailleurs à remarquer que toutes les langues développées présentent des subtilités analogues dans l'emploi de telle ou telle expression; mais ces traditions s'appuient sur le génie lui-même de la langue, logiquement, et non pas sur des traditions religieuses interprétées par des esprits étroits.

En fait, les rhéteurs qui ont codifié ces subtilités n'avaient aucun pouvoir pour lutter, le cas échéant, contre l'usage établi. C'est ainsi qu'Ibn - El-Mudabber par exemple a critiqué et raillé l'expression: “ جمعت فداك إ ”; cela ne l'a pas empêché de l'utiliser lui-même à différentes reprises dans ses vers⁽¹⁾ Al-Sôli blâme l'emploi de “ أطال الله بقاءك إ ” mais en même temps il avoue que tout le monde l'utilise⁽²⁾.

Pourquoi ne l'eût-on pas employé agréablement après tout? Parce qu'on la devait à des athées?

(1) El-Aghani, p. 118-121, vol. 19.

(2) Adab El-Kuttâb, p. 172.

s'adresser même aux peuples étrangers ; il importe donc d'employer une orthographe "intégrale" qui facilite la lecture et la prononciation ; ce progrès hâterait grandement la diffusion de l'arabe dans le monde.

Les Arabes nomment "chakl شكل" ces signes-là, n'est-ce pas curieux ? Le mot signifiait originairement la corde avec laquelle on attache un animal un peu sauvage pour éviter qu'il ne s'enfuit ; on l'a pris dans un sens figuré pour indiquer le lien qui fixe chaque mot à sa signification authentique.

Les orientalistes auront avantage à utiliser le *chakl* régulièrement. Son emploi facilitera leur noble tâche.

IX

Ibn-Durustuyah a parlé de l'expression "سلام عليك" Selon lui, aurait existé de son temps une interprétation subtile de cette formule : sous la forme : "سلام عليك" elle était une salutation pour les vivants ; mais inversée sous la forme "عليك سلام" elle devenait un salut pour les morts. Les poètes seuls, prétend-il, confondent quelquefois les deux formes pour des besoins de mesure ou de rime, mais c'est le Prophète lui-même, à son dire, qui a engagé ses partisans à observer cette distinction⁽¹⁾.

Ibn El-Mudabber a parlé, nous l'avons vu, des prières par lesquelles on commençait les lettres. C'est une question fort délicate. A l'origine de la langue les formules d'invocation étaient très voisines l'une de l'autre ; cependant on faisait communément la différence entre "أطال الله بقاءك!" et "أبقاك الله طويلاً!" Al-Sôli nous apprend que la première devait être rejetée comme ayant été forgée par les

(1) cf. Kitâb El-Kuttâb, pp. 75 et 76. voir également

الفواكه الدواني، شرح رسالة الفيرواني — ص ٢٤١ ج ١

(2) Adab El-Kuttâb pp. 172-173.

mots qui changent de sens suivant la prononciation. Il importe enfin de dessiner complètement et correctement les mots que les gens du commun prononcent d'ordinaire mal.

Cette question de signes orthographiques me semble importante; elle est, comme on le sait une des critiques élevées contre les caractères arabes. On dit couramment que les mots écrits avec ces caractères peuvent se prononcer de plusieurs façons et présenter ainsi des sens différents; et c'est pour éviter cet inconvénient que les Turcs viennent d'adopter l'alphabet latin.

J'ignore quel succès a obtenu l'initiative des Turcs; mais ce que je sais bien, c'est que pour notre langue l'emploi de l'alphabet latin serait néfaste. Nous avons, en effet, deux sortes de voyelles; les grandes et les petites. Les grandes qui sont Alif ألف, waw واو, yâ يا; les petites représentées par les signes qui fixent l'accent, c'est-à-dire damma ضمة, kasra كسرة, fatha فتحة.— Celles-ci, on ne pourrait les transcrire dans l'alphabet latin qu'avec la plus grande difficulté, et leur représentation compliquerait l'orthographe et la prononciation d'une manière considérable.

Pour éviter tant d'inconvénients, mieux vaut prendre l'habitude d'employer régulièrement les signes; ce n'est pas une très grande peine; et si on les inscrit, l'orthographe arabe reste plus facile et plus pratique que l'orthographe latine. Il est dommage que les anciens en aient délaissé l'obligation; ils avaient d'ailleurs une excuse, c'est qu'ils écrivaient pour des gens cultivés, et qu'un homme instruit n'éprouve jamais la moindre difficulté à lire des textes même entièrement dépourvus de signes d'accentuation; mais aujourd'hui la situation se présente très différente. La langue arabe veut

(1) Adab El-Kuttâb, pp. 57 - 58.

(2) Kitâb El-Kuttâb p. 57.

mots qui la composent la brisent elle ressemble au vers dont la mesure n'est pas juste; les mots eux-mêmes prennent un aspect presque vulgaire et grossier⁽¹⁾ - Il est désagréable de voir un mot dont le dessin se trouve à cheval sur deux lignes⁽²⁾.

Ibn Durustuyah a donné des renseignements sur les usages qui avaient cours de son temps pour l'adresse des lettres.⁽³⁾ Il fallait inscrire les deux noms de l'expéditeur et du destinataire: si le second était un homme plus considérable, on devait l'écrire en premier. Al-Sôli indique que tout d'abord on avait pris l'habitude de mettre la Basmala en tête de l'adresse, mais qu'elle a été abandonnée⁽⁴⁾. Il se trouvait aussi des gens pour écrire leurs adresses en vers!.

Ibn El Mudabber a conseillé de ne pas écrire les signes et les points destinés à fixer la prononciation, sauf dans les cas où il peut y avoir amphibologie; on doit alors employer l'orthographe régulière. Al-Sôli donne un conseil semblable. Il indique même qu'il faut toujours supprimer les points et les signes orthographiques quand on écrit à un chef; car ce sont des gens qu'on doit tenir comme omniscients; le chef, lui, pourra, au contraire employer signes et points quand il écrit pour ses attachés ou ses secrétaires, afin de préciser sa responsabilité. Il y a d'ailleurs d'autres personnes encore, ajoute Al-Sôli, qui préfèrent inscrire tous les signes orthographiques, de crainte d'erreurs graves dans la lecture.⁽⁵⁾

Ibn-Durustuyah note que pour les philologues et les grammairiens c'est une obligation de mettre régulièrement les points et signes orthographiques, tandis que les écrivains de bureau peuvent les négliger, ... à condition toujours, cependant, de les écrire pour les

(1) Ibid, p. 54.

(2) Ibid, p. 56.

(3) Kitâb El-Kuttâb, p. 97.

(4) Adab El-Kuttâb, p. 144.

(5) Ibid p. 146.

les anciennes habitudes; il s'agit là évidemment d'un pur formalisme, mais il a une valeur profonde de psychologie. On doit en être assuré puisque l'usage n'en est fait que pour les œuvres sérieuses. Pour les recueils de poésie, on juge inutile de les placer sous l'invocation de Dieu, car d'après les conservateurs religieux, la poésie est un simple amusement.

?? qu'es ce que
ce

Pour en revenir au discours de Ziyad, j'estime qu'il avait eu bien raison de ne pas le couronner par cette invocation qui est une marque de grâce et de tendresse, puisqu'il s'agissait-là d'une diatribe virulente contre les habitants de Basra البصرة débauchés et fauteurs publics de désordre. Louer Dieu, prier pour le Prophète me semblent une attention délicate qu'il faut réserver pour les cas où l'on s'adresse à des esprits réfléchis et sensibles; l'habitude ne subsiste plus aujourd'hui, d'ailleurs, que dans les milieux religieux.

VIII

Al-Sôli a lui aussi parlé longuement de l'encre et de l'encrier,⁽¹⁾ ainsi que des qualités du papyrus,⁽²⁾ de la fabrication du calame⁽³⁾; il a même traité ces questions moins superficiellement que ne l'a fait Ibn El-Mudabber, estimant comme lui qu'il n'est pas indifférent pour bien écrire d'avoir de bons instruments. Al-Sôli a même consacré un long chapitre à énumérer les lettres, les poèmes qui ont été composés à la gloire des bons calames. Jadis, les grands écrivains appréciaient le don d'un calame de bonne qualité à l'égal du plus précieux cadeau; et je crois bien qu'il doit en être aujourd'hui de même pour les stylos. Les anciens jugeaient un écrivain d'après ses outils et même, estimaient-ils qu'une mauvaise écriture était une maladie sans remède chez un homme dont c'est le métier d'écrire⁽⁴⁾. Une ligne devait être tracée avec régularité, car si les

(1) Adab El-Kuttâb, pp. 95-101.

(3) Ibid, pp. 69-70.

(2) Ibid, p. 105.

(4) Ibid, p. 52.

Nous allons maintenant examiner les points de contact qu'il est permis de trouver entre les idées contenues dans la Lettre Vierge et celles qu'ont exprimées les autres auteurs qui ont traité la même question.

A propos de l'invocation au Prophète الصلاة على النبي, Al Sôli en a parlé lui aussi; mais tandis qu'Ibn El-Mudabber indique seulement qu'elle était une tradition supprimée par les Banou-Omayya, Al-Sôli dit que l'habitude en fut instaurée par Haroun El-Rachid هرون الرشيد⁽¹⁾. Le premier n'a rien dit de "Basmala البسملة" c'est-à-dire de l'invocation à Dieu au début des lettres; Al Sôli nous donne, au contraire des renseignements précieux à ce sujet,⁽²⁾ ainsi que Ibn-Durustuyah⁽³⁾. On sait assez, par ailleurs, que dans les premiers siècles de l'Islam, les Arabes se sont montrés fort attachés à cette coutume de louer le nom de Dieu au début de leurs lettres, de leurs discours ou de leurs livres, et qu'on a blâmé par exemple Ziyad زياد lorsqu'il a prononcé, sans nommer Dieu ni le louer, le discours qui, à cause de cette omission, a été appelé: "Le Mutilé البتر". On a même été jusqu'à forger un *hadith* qui condamne toute œuvre qui ne commencerait pas par cette invocation.

De nos jours, la première leçon qu'on donne à l'Université d'El-Azhar, après la rentrée, traite souvent de cette question: les auteurs azharistes commencent, en effet, toujours leurs livres par El-Basmala, même quand ils écrivent sur les mathématiques ou la géographie. C'est une tradition qui me semble dirigée surtout contre les mauvais croyants qui volontiers traitent avec indifférence

(1) Adab El-Kuttâb كتاب الادب - p. 40.

(2) Adab El-Kuttâb - p. 31 et 32.

(3) Kitâb El-Kuttâb كتاب الادب p, 75.

être une feuille de dimensions, pour ainsi dire : rituelles. Nous n'ignorons pas d'ailleurs que ces traditions sont encore observées aujourd'hui. Enfin, il recommande de sécher l'encre avec de la poussière, avant de plier la lettre, . . . et de ne pas oublier de dater la lettre.

Ibn El-Mudabber conseille l'usage de l'invocation au Prophète; c'est la saine tradition, et comme on le sait, les écrivains n'y ont renoncé qu'à la suite des Banou-Omayya qui l'avaient supprimée les premiers.

On doit commencer une lettre en indiquant brièvement ce que l'on compte développer; les phrases de la fin doivent également préparer la conclusion.

Ibn El-Mudabber a donné des renseignements amusants à l'usage de ceux qui désirent décacheter une lettre sans l'abîmer afin d'en prendre connaissance, et de pouvoir la cacheter à nouveau sans qu'on puisse soupçonner qu'elle a été ouverte. Voilà qui nous en apprend assez long, sur l'importance des correspondances officielles dès ce temps là. Je crois bien, d'ailleurs, que de nos jours encore, le Cabinet Noir, fonctionne souvent; par quels procédés? Il est inutile de le dire, mais qu'on soit bien persuadé que les diplomates et les guerriers connaissent leur affaire!

Ibn El-Mudabber déclare enfin que le métier d'écrivain est un bon métier; il a tiré bien des hommes d'un milieu médiocre et grâce au Calame leur a parfois donné de la gloire.

VII

Je viens de faire une incursion rapide dans le texte de la Lettre-Vierge, mais il importe de lire attentivement l'original si l'on veut apprécier la valeur de ce petit chef-d'œuvre; c'est ce texte que je présente revu, corrigé et commenté.

Enfin, pour écrire de bonnes choses, il conviendra de choisir les moments où le cœur bat avec force, où l'âme est en pleine activité, car la nature ne livre le meilleur d'elle-même qu'aux heures ardentes où l'attire la violence du plaisir, ou la colère conquérante.

Un écrivain n'a pas le droit de prendre avec le langage régulier les libertés qu'à prises le Coran.

Parce qu'il s'est adressé à des Arabes de race pure, capables par conséquent de comprendre facilement n'importe quelles tournures de phrases, le Coran a parfois éliminé des mots, supprimé des propositions entières; tandis qu'un écrivain qui s'adresse à des hommes souvent étrangers à la langue arabe doit éviter soigneusement les mots à sens amphibologique, et ceux qui ne sont pas assez précis.

VI

Ibn El-Mudabber attache beaucoup d'importance aux qualités matérielles du calame lui-même. Il donne à ce sujet, des renseignements qui semblent presque inutiles aujourd'hui qu'on achète tout préparé le matériel d'écriture. Cependant, je louerais volontiers mon auteur pour ces détails, comme d'une psychologie très subtile, lui et ceux qui avec lui ont traité cette question. Car un calame obéissant et souple entraîne l'esprit à merveille, et nous-mêmes aujourd'hui nous aimons à choisir telle plume plutôt qu'une autre, afin de rendre notre tâche plus agréable. On a même blâmé le célèbre poète contemporain Ahmad Chawky احمد شوقي pour avoir chanté les mérites de la plume Sadek ريشة صادق; on a crié à la réclame, et pourtant il est tout simple qu'un bon écrivain aime se servir d'une bonne plume.

La nature du papier retient aussi l'attention d'Ibn El-Mudabber; il le faut toujours d'excellente qualité, mais pour le format, chaque classe sociale a des traditions à cet égard. Une lettre officielle doit

C'est là, en effet, une vertu digne de louange, de façon générale, mais est-il décent de louer un roi pour la posséder, pour dire la vérité et ne pas mentir? Dire la vérité et tenir ses promesses, c'est de la loyauté, sans doute, mais aussi un devoir et pour tous les hommes. On ne doit louer les rois que pour de belles actions ^{الغفالة} qu'ils soient les seuls à pouvoir accomplir. Ira-t-on, par exemple, faire honneur à un souverain de ne pas courtiser la femme de son voisin, de ne pas trahir les secrets qu'on lui confie, de garder sa parole et de tenir ses promesses? Ce sont là cependant des qualités qui méritent l'éloge, mais à l'égard d'un roi il serait ridicule, car ce sont aussi des devoirs que chacun doit remplir, même dans les classes les plus modestes de la société.

V

Ibn El-Mudabber conseille à celui qui voudrait choisir le métier ^{المهنة} d'écrivain de consulter d'abord sa nature.

Pour bien écrire, il faut des dispositions particulières et presque une vocation; on forcerait en vain la nature, si elle est mal préparée, car il faut qu'un écrivain tire beaucoup de son propre fonds; celui qui compte sur la connaissance des œuvres d'autrui, ne mérite pas vraiment ce nom.

Que celui-là se méfie cependant, qui se sent des dispositions pour bien écrire; car, en général, chacun de nous est porté à l'indulgence envers soi-même. Qu'il examine sévèrement ce qu'il compose; la nature humaine est faible et vaniteuse et tout créateur contemple son œuvre avec les yeux attendris d'un père pour son fils, ou d'un amant pour l'aimée. Si l'on écrit une lettre, il faut la soumettre au jugement des hommes compétents, et sans en nommer l'auteur, bien entendu, la laisser discuter, épilucher; et si elle trouve grâce, on pourra l'achever.

IV

L'écrivain doit fréquenter les savants et les lettrés, étudier avec soin les œuvres tant des anciens que des modernes, en connaître l'esprit, savoir par cœur poésies, nouvelles, histoire générale, afin d'enrichir sa poésie et de fournir au calame à la fois de la puissance et du charme. Il lui faut étudier les discours et les dialogues des Arabes, apprendre la logique, la littérature de la Perse, les traités des Persans et leurs proverbes, connaître aussi leurs manières d'agir et leurs ruses dans la guerre, et ne pas ignorer enfin, la grammaire, la philologie, et la versification.

Physiquement, un écrivain doit être de ^{جليله} taille imposante, avoir des traits réguliers; sa voix doit résonner harmonieusement, et il faut que ses vêtements soient toujours propres et même élégants. Il importe que son âme soit douce, qu'il ait du bon sens et une expérience de la vie suffisante. ??

L'écrivain connaîtra parfaitement tous les milieux. Chaque classe sociale possède ses traditions, et rien ne serait plus ridicule de confondre des Califes... avec leurs ministres et de traiter de la même manière des secrétaires d'Etat et des généraux, par exemple.

Ibn-El-Mudabber ne cite pas les marchands ni les gens ordinaires comme correspondants dignes d'indication particulière, car, dit-il, ces gens là sont entièrement absorbés par les préoccupations de leur métier.

Mais pour les autres classes, comme toutes possèdent hiérarchie et tradition, il faut que l'écrivain en tienne soigneusement compte pour ne pas commettre d'erreur choquante. On a blâmé, par exemple, Al-Ahwas ^{تفسير} الأحوص pour avoir crû louer un roi par ces paroles: "Je vois que vous faites ce que vous dites, tandis que les autres ne tiennent pas leur parole et disent ce qu'ils ne font pas".

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مدق الحديث يقول ما لا يفعل

en fait, un certain nombre de celles qu'il a traitées, Al-Gahiz les avait déjà étudiées, mais cependant, d'une manière générale le titre se justifie; c'est bien là une "Lettre Vierge".

III

Ibn El-Mudabber donne la plus grande importance à la forme. Il observe que les mots doivent être choisis selon la situation du correspondant, selon son goût et son degré de culture qui dépendent eux-mêmes des modes adoptées dans les différents milieux sociaux. Telles expressions, qui donnent pourtant un sens exact et précis, doivent être écartées, si elles ne sont pas celles qu'admet la mode particulière du milieu dans lequel vit l'interlocuteur. Tous les mots d'ailleurs doivent être choisis pour la clarté et la solidité avec lesquels ils expriment le sens-enfin, leur place dans la phrase importe également, afin qu'ils ne paraissent pas disparates à l'endroit qu'ils occupent. Car les mots sont semblables à la broderie qui orne une étoffe; chaque détail de la broderie doit être en harmonie avec l'ensemble du tissu; et les sages, dit-il, ont comparé le sens des écrits à la beauté des femmes, et les mots aux vêtements qui la parent.

Les mots eux-mêmes, d'ailleurs, un écrivain les trouve aisément: la difficulté réside dans leur arrangement: mettez les perles entre les mains de l'orfèvre, le difficile sera pour lui de composer le collier. La cornaline est jolie par elle-même, mais combien plus belle au cou d'une femme charmante! S'il veut produire quelque chose de beau, un auteur devra d'abord trouver un beau sujet. Il faut qu'un écrivain soit un homme juste et un sage; car la justice est l'âme des belles-lettres; et celui qui s'aviserait de traiter les choses légèrement n'obtiendrait aucun résultat; la sagesse demande des cœurs justes et équitables.

Les renseignements sur Ibn El-Mudabber se trouvent dispersées çà et là dans différents recueils.⁽¹⁾ Une part de sa célébrité lui vient de son amour pour 'Arib عريب la belle chanteuse. Il fut aussi l'intime ami d'Al-Gâhiz et tous deux passaient ensemble des veillées intéressantes. J'imagine que cette grande amitié fut une des causes qui ont incité Ibn El-Mudabber à composer son ouvrage sur l'art d'écrire, car je n'ai lu nulle part qu'il s'intéressât particulièrement à ce genre d'études. Cependant, j'ai trouvé chez Al-Sôli un mot qui semble bien indiquer chez Ibn El-Mudabber une certaine compétence pour la critique des expressions: la citation d'Al-Sôli est presque identique à celle qui se trouve dans la Lettre Vierge à propos des mots: "جعلت فداك".— Cela seul authentifierait la Lettre comme l'œuvre d'Ibn El-Mudabber.⁽¹⁾

La rhétorique, dans ce morceau, n'est pas celle dont on a usé après lui. L'allure y est plus franche, plus directe que chez Al-Gahiz même: le souffle est plus chaud. L'auteur s'adresse aux écrivains des bureaux administratifs, à ceux par conséquent qui servent de secrétaires aux rois et aux Califes. Certains passages sont tout à fait originaux, et mettent bien en valeur les qualités et l'importance de la prose, ainsi que l'influence et l'autorité que le talent donne à l'écrivain.

La lettre dans son ensemble est une œuvre remarquable. L'auteur l'avait nommée "la Vierge" parce qu'il pensait y avoir examiné des questions que personne avant lui n'avait abordées;

(1) Sa biographie se trouve dans Al-Aghani الأغانى vol. 19, cf. aussi les pages 188-34-59 du vol. 18. — 35 et 36 du vol. 20. — 175; vol. 6—90 et 92. vol. 15 11-30; vol. 13; enfin 26-29-108-109-113 vol. 9 - On peut consulter aussi Yakout: p. 155-409 vol. 2-61-65 vol. 6.-93-94 vol. 2 - Egalement Masalek El-Absar مسالك الأَبصار p. 320 vol. I. Nishwâr p. 131 vol 1; enfin Zahr El-Adâb p. 113-140. vol. I.

(2) Adab El-Kuttâb ادب الكتاب vol. 154.

“ Je venais, poussé par le désir de vous voir; mais dans les gens de votre suite, je n'ai trouvé que visages de bois ”.

“ On dirait que je suis un créancier importun qu'on chasse ou un espion ”. (1)

Une autre fois, c'est Abou El-'Aynâ أبو العيناء qui vient chez 'Obaïd Allah Ibn Solaïman عبيد الله بن سليمان pour lui exposer une plainte. “ Comment ? répond 'Obaïd Allah, mais nous avons écrit à Ibn El-Mudabber afin qu'il arrange votre affaire ”.

“ C'est vrai, Seigneur, vous avez écrit; mais à un homme qui est prisonnier de la dure pauvreté, jusqu'à l'humilité de la captivité. C'est pourquoi, il m'a déçu ”.

“ Mais n'était-ce pas vous qui l'aviez choisi pour patron ? répartit 'Obaïd Allah ”.

“ Que peut-on me reprocher ! dit Abou El-'Aynâ. Mais je ne suis pas le premier qui se soit trompé. Moïse avait à choisir soixante-dix sots. (2) Le Prophète prit Ibn Abi Sarh ابن أبي سرح pour son secrétaire; il apostasia par la suite. 'Ali Ibn Abi Taleb علي بن أبي طالب a choisi Abou-Mousa أبو موسى comme arbitre; et il arbitra contre lui ”. (3)

La captivité dont parle ici Abou El-'Aynâ à propos d'Ibn El-Mudabber était réelle : Les Zangs l'avaient fait prisonnier à Basra et enfermé. Il s'échappa d'ailleurs et s'enfuit après avoir percé une muraille; son évasion a fourni à Al-Buhtori le sujet d'un beau poème. (4)

(1) Yakout ياقوت - p. 292, vol. I.

(2) Allusion à un verset du Coran (سورة الأعراف 154) Moïse eut à choisir 70 hommes : ils étaient tous sots.

(3) Zahr El-Adâb زهر الآداب - p. 256, vol. I. - Ibn Abi Sarh fut d'abord le secrétaire du Prophète : il l'abandonna ensuite, et trahit l'Islam pour se rejoindre à ses ennemis.

(4) Zahr El-Adâb - p. 257, vol. I.

puis, j'ai repris ma lecture mot à mot avec Mr. le Professeur Marçais qui m'a aidé à dissiper quelques obscurités. Je ne crois pas trop me flatter en pensant que ces efforts me permettent de présenter un texte amélioré à l'École des Langues Orientales de Paris. Il m'eût agréé fort d'écrire la présente introduction dans ma langue maternelle, mais Mr. Marçais m'en a dissuadé, estimant avec raison sans doute qu'il fallait songer aux lecteurs qui ne suivent pas aisément un texte arabe dans l'original, et l'écrire en français.

J'expose ici les idées principales de la Lettre et je les compare à celles qu'à la même époque Al-Gahiz الجاحظ, Al-Soli الصولي, Ibn-Durustuyah ابن درستويه et Ibn 'Abd Rabbih ابن عبد ربه ont exprimées sur le même sujet. (1)

L'intérêt de cette étude est de préciser la nature du mouvement littéraire et des théories touchant l'art d'écrire, au III^e Siècle de l'hégire; c'est en quelque sorte un prologue pour mon ouvrage sur la prose arabe au IV^e Siècle.

II

Ibrahim Ibn El-Mudabber ابراهيم بن المدبر, l'auteur de la Lettre Vierge الرسالة العذراء, à la fois écrivain et poète est mort à Bagdad en 279. Il appartient par conséquent au III^e siècle de l'Hégire. Après avoir occupé différents postes éminents, il devint le ministre d'Al-Mo'tamed المعتد. En cette qualité, on le voit fort entouré par les autres poètes et littérateurs qui en attendaient quelque faveur, et l'on trouve à ce sujet pas mal d'anecdotes savoureuses dans les recueils littéraires. Un jour par exemple, Al-'Atawi العطوي le poète, s'étant rendu chez lui pour le voir, se heurta au refus du portier; il se retira mais adressa aussitôt à Ibn El-Mudabber les deux vers suivants :

(1) Il semblerait que le nom d'Ibn Kotaïba ابن قتيبة dût être cité ici au premier rang, puisque son ouvrage Adab El-Kâteb أدب الكاتب est consacré à l'art d'écrire. En réalité, il s'agit plutôt là de philologie et non de rhétorique. Nous avons pourtant rapproché son texte de nos observations, dans l'édition même de la Lettre Vierge, toutes les fois qu'il a été possible de le trouver utile à notre objet.

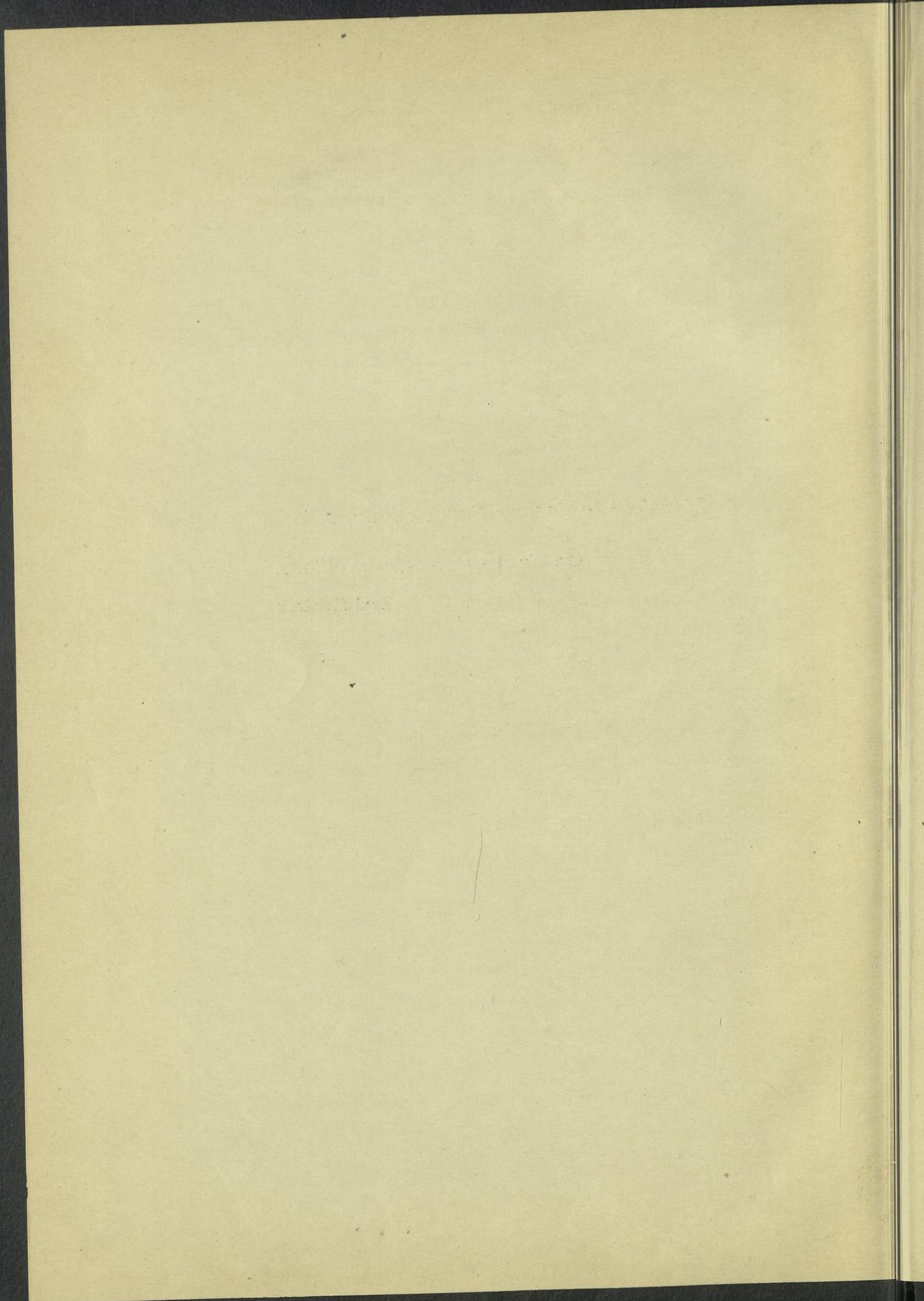
Considération sur l'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire

La lettre que je présente aujourd'hui à l'École des Langues Orientales de Paris a déjà été publiée en 1912 - et pour la première fois, au Caire, dans un intéressant recueil qui paraissait alors sous les auspices et la direction de S. E. Mohammad Kordi محمد كردى على 'Ali, ministre de l'Instruction Publique en Syrie. Ce premier éditeur disait l'avoir trouvée dans un ancien manuscrit faisant partie de la bibliothèque du Cheikh Taher El-Gazaïri طاهر الجزائري, et la publier sur le texte de ce seul document, faute d'en avoir trouvé d'autre.

Cette lettre est d'une haute importance. Personne, cependant, à ma connaissance ne s'y est intéressé après sa publication; pas même l'érudit qui la publiait, puisqu'il n'a joint à son texte aucun commentaire. Quant aux historiens de la littérature arabe, en Egypte, ils ont laissé passer l'évènement sans le relever; nul d'entre eux n'a songé à utiliser le document pour une étude sur l'art d'écrire.

J'ai demandé moi-même à M. Kordi 'Ali, dans une lettre, si depuis la publication de ce texte il en avait rencontré un autre manuscrit ou trouvé quelque renseignement; s'il avait enfin relevé lui-même quelques fautes de copiste ou des altérations. Dans sa réponse il m'indiquait n'avoir découvert aucun autre manuscrit de la Lettre - sans doute parce que les gens du pays ont le sens du mercantilisme plus encore que les frères de Joseph أبيع من إخوة يوسف; qu'il existait sans doute des fautes et des altérations dans le texte qu'il avait publié, comme il en va toujours des anciens manuscrits, quand ils n'ont pas eu la chance d'être écrits par des mains savantes ou encore corrigés par des lettrés, égaux en savoir à l'auteur lui-même.

J'ai donc poursuivi mon étude personnelle, attentivement, ce qui m'a permis de relever un certain nombre de leçons fautives;



A

Monsieur le docteur Snouck Hurgronje

Hommage de respectueuse gratitude.

Zaki Mubâarak



L'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire



Etude critique
sur
LA LETTRE VIERGE
D'IBN EL - MUDABBER

Par

ZAKI MUBARAK

Docteur ès Lettres de l'Université de Paris
Docteur ès Lettres de l'Université Egyptienne
Diplomé de l'Université d'El Azhar
Diplomé d'Etudes Supérieures de l'Ecole des Langues Orientales de Paris
Directeur de l'enseignement de l'arabe à l'Université Américaine du Caire
Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

PARIS

LIBRAIRIE ORIENTALE ET AMÉRICAINNE

MAISONNEUVE FRÈRES, ÉDITEURS

3, RUE DU SABOT

LE CAIRE,

IMP. DE LA BIBLIOTHÈQUE EGYPTIENNE

1931

DU MÊME AUTEUR

LA PROSE ARABE

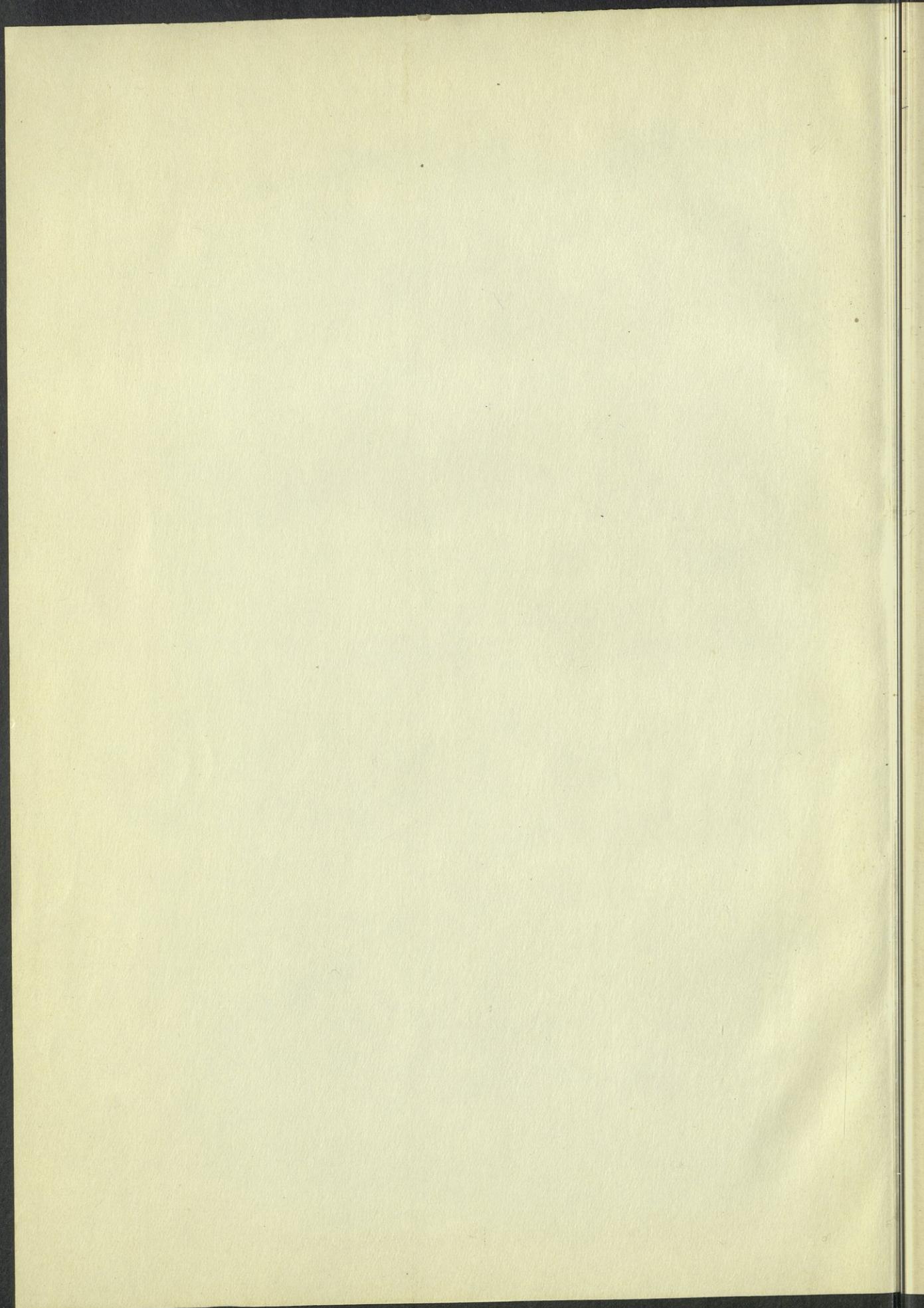
au IV^e siècle de l'Hégire (X^e siècle)

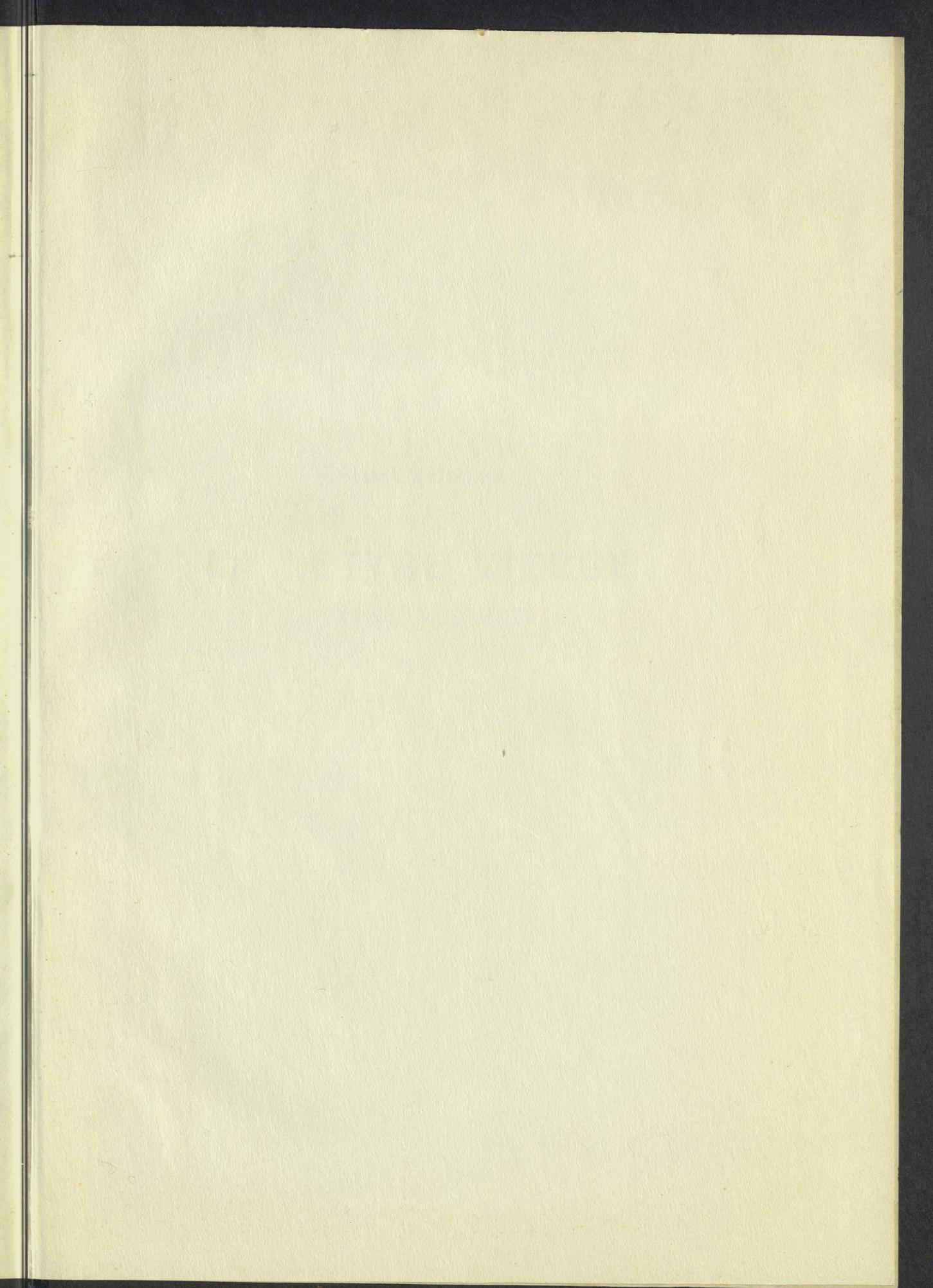
Etude critique

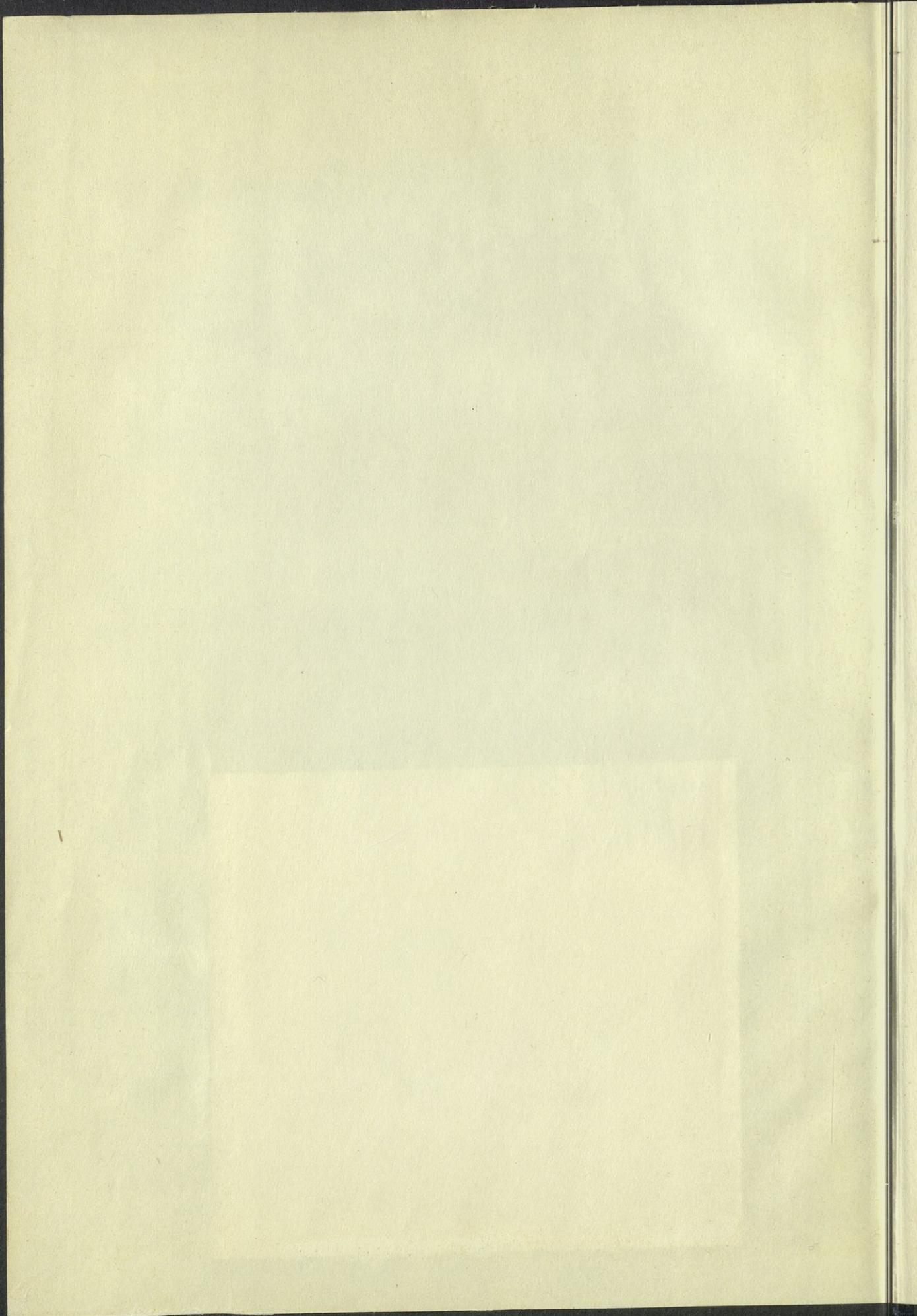
sur

LA LETTRE VIERGE

D'IBN EL - MUDABBER







808
[137A



808:1137A:c.1

مبارك، زكى

الرسالة العذراء: مصححة ومشروحة م

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031038

808
I137rA